جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدسوق

مجلة الدراية
https://drya.journals.ekb.eg
drya.journal@gmail.com

مجلة الدراية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية

اتجاهات الغزل في أشعار العباسيين "دراسة تحليلية فنية"

إعداد

د. أحمد السيد يوسف المنيِّر

مدرس الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

دمياط الجديدة

اتجاهات الغزل في أشعار العباسيين "دراسة تحليلية فنية"

أحمد السيد يوسف إبراهيم المنير
قسم الأدب ونقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدمياط الجديدة،، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني:ahmed_elsayed2224@yahoo.com

الملخص

يدور الحديث في ذلك البحث حول اتجاهات الغزل في شعراء العصر العباسي؛ للوقوف على معالمها وملامحها وسماتها، والتعرف على مظاهر التقليد والتطور والتجديد فيها، وتحديد مدى تأثرها بالحياة العباسية الجديدة، بكل مظاهرها، التي تمخضت عنها تلك الحياة، وبما ظهر فيها من أشكال وأنماط ومظاهر حضارية واجتماعية وثقافية جديدة، كانت مثيرًا قويًا للشعراء في الشعر بشكل عام، وفي فن الغزل بشكل خاص . وقد بينت في مواضع من البحث تلك المظاهر الحياتية الجديدة، التي تقلب فيها شعراء العصر العباسي، وتأثروا بها في غزلهم، ودفعتهم إلى الإجادة فيه، والإبداع في كل اتجاهاته . كما ألقيت الضوء على تلك الاتجاهات، وبينت المراد بها، وملامحها وسماتها العامة في غزل العباسيين، ودوافع نظم الشعراء فيها، والإكثار منها، وقدمت شواهد لها من غزل الشعراء العباسيين. هذا، وقد جاء البحث في مقدمة كشفت عن أهمية الموضوع، ودواعي دراسته، وخطة البحث. وبعد المقدمة توطئة، تضمنت إطلالة موجزة على فن الغزل من الجاهلية حتى العصر العباسي، وملامح الغزل، وأبرز مظاهره في كل عصر من تلك العصور الأربعة . وبعد التوطئة قدمت دراسة مفصلة، إلى حد ما، في اتجاهات الغزل في أشعار العباسيين، على النحو التالي: أولًا: الغزل المادي الحسي ، ثانيًا: الغزل العفيف، ثالثًا: الغزل القصصي، رابعًا: غزل المقدمات الشعرية، خامسًا: غزل الرسائل الغرامية، سادسًا: الغزل بالمذكر . وفي نهاية البحث خاتمة تضمنت موجزًا للبحث، وسردًا لنتائج دراسة موضوعه، ثم فهرس المصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحية: الغزل، الشعر العباسي، أنواع الغزل، العفيف

Spinning trends in the poems of the Abbasids "An artistic analytical study"

Ahmed Al-Sayed Youssef Ibrahim Al-Munir
Department of Literature and Criticism - College of Islamic and Arab Studies for Boys in New Damietta, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt
E-mail: ahmed_elsayed2224@yahoo.com

Abstract

The discussion in this research revolves around the trends of ghazal among the poets of the Abbasid era. To identify its features, features, and characteristics, and to identify the manifestations of tradition, development, and innovation in it, and to determine the extent to which it was influenced by the new Abbasid life, in all its manifestations, that resulted from that life, and with the new forms, patterns, and cultural, social, and cultural manifestations that appeared in it, which was a strong stimulus for poets in poetry in general. And in the art of spinning in particular. In places of the research, I have shown those new aspects of life in which the poets of the Abbasid era changed, and were influenced by them in their poetry, and pushed them to become proficient in it and to be creative in all its directions. I also shed light on these trends, clarified what they mean, their general features and characteristics in Abbasid poetry, the motivations for poets composing them, and the abundance of them, and provided evidence of them from the poetry of Abbasid poets. The research included an introduction that revealed the importance of the topic, the reasons for studying it, and the research plan. After the introduction, it included a brief overview of the art of spinning from pre-Islamic times until the Abbasid era, the features of spinning, and its most prominent manifestations in each of those four eras. After the introduction, I presented a detailed study, to some extent, of the trends of spinning in the poems of the Abbasids, as follows: First: Physical, sensual spinning, Second: Chaste spinning, Third: Narrative spinning, Fourth: Spinning poetic introductions, Fifth: Spinning love letters, Sixth: : Flirting with the masculine. At the end of the research, there is a conclusion that included a summary of the research, a narration of the results of the study of its subject, and then an index of sources and references.

Keywords: spinning, Abbasid poetry, types of spinning, chaste

مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد ..

الغزل – بشكل عام – من الفنون الشعرية، البارزة في شعرنا العربي في كل عصوره، وقد بدأ تعامل الشعراء معه منذ القدم، وهو فن تتعدد فيه الاتجاهات، وتتنوع فيها المضامين، و يصدر عن مشاعر الشعراء وأحاسيسهم، ويعبر عن عواطفهم ومواقفهم تجاه من يحبون، ومن يتعلقون به من النساء بشكل عام، ومن الغلمان– في العصر العباسي– بشكل خاص .

و قد نال فن الغزل اهتمام الشعراء في كل عصر أدبي ؛ لأنه يعكس العلاقة بين الرجل والمرأة، وتلك العلاقة لا تنتهي ولا تتوقف، مهما كان نوعها وسمتها، والشعراء يحبون دائمًا أن يعبروا عن مشاعرهم، ويترجموا أحاسيسهم شعرًا تجاه محبوباتهم، تعبيرًا عن إعجابهم بهن، وتعلقا بحبهن، وتصويرًا لمشاعرهم تجاههن، والتغني بجمالهن وأوصافهن.

وقد ازدهر الغزل في كل عصور الأدب العربي، لاسيما عصوره الأولى، وربما كان أكثر ازدهارا وتنوعًا في العصر العباسي، الذي يمتد تاريخيًا إلى ما يزيد على خمسة قرون من عام ١٣٢هـ حتى عام ٦٥٦هـ؛ لتوافر عوامل كثيرة ساعدت على تنوعه وازدهاره، وتعدد اتجاهاته، حيث كانت الحياة العباسية–في بعض جوانبها ومظاهرها–مثيراً قوياً لمشاعر الشعراء ، ومحركًا حيويًا لأحاسيسهم ووجداناتهم، فدفعتهم بشدة إلى الإكثار من الغزل والتنوع فيه، والإجادة والإبداع في كثير من نماذجه في دواوينهم، حتى أصبح الغزل واحدًا من الفنون الشعرية البارزة بقوة في ديوان الشعر

العباسي ، وبرز فيه بعض الشعراء، وشهد كثيرًا من مظاهر التطور والتجديد، وانعكست علي مرآته بعض مظاهر الحياة العباسية في جانبيها: الاجتماعي، والحضاري؛ مما جعله يحتل مكانًا بارزًا، ومكانة عالية بين فنون الشعر في ذلك العصر، كما جعله فنًا يغري بالدراسة والبحث فيه في ذلك العصر أيضًا.

ولذلك كله اخترت ذلك الفن الشعري المميز بين فنون الشعر في العصر العباسي؛ لأقدم ذلك البحث المتواضع فيه، من خلال الحديث عن اتجاهات الغزل في شعر شعراء العصر العباسي؛ للوقوف على معالمها وملامحها وسماتها، والتعرف على مظاهر التقليد والتطور والتجديد فيها، وتحديد مدى تأثرها ببعض مظاهر الحياة العباسية الجديدة، التي تمخضت عن تلك الحياة، وبما ظهر فيها من أشكال وأنماط ومظاهر حضارية واجتماعية وثقافية جديدة، كانت مثيرًا قويًا للشعراء في الشعر بشكل عام، وفي فن الغزل بشكل خاص .

وقد بينت في مواضع من البحث بعض تلك المظاهر الحياتية الجديدة، التي تقلب فيها شعراء العصر العباسي، وتأثروا بها في غزلهم، ودفعتهم إلى الإجادة فيه، والإبداع في كل اتجاهاته .

هذا، وفي بداية البحث تلك المقدمة التي بين أيدينا، والتي كشفت عن أهمية الموضوع، ودواعي دراسته، وخطة البحث، ومنهجه، وبعض الدراسات السابقة في موضوع البحث .

وبعد المقدمة توطئة، تضمنت إطلالة موجزة على فن الغزل من الجاهلية حتى العصر العباسي، وملامح الغزل، وأبرز مظاهره في كل عصر من تلك العصور الأربعة .

وبعد التوطئة قدمت دراسة مفصلة، إلى حد ما، في الاتجاهات الموضوعية لفن الغزل في أشعار العباسيين، وقد قمت بتحديد تلك الاتجاهات بالنظر إلي موضوعاتها العامة، و إلي المضامين والصفات الغزلية الواردة فيها، وكيفية تعامل الشعراء معه، ومع المتغزل فيهن أو فيهم، والهدف والغاية منها، وهي علي النحو التالي:

أولًا: الغزل المادي الحسي .

ثانيًا: الغزل العفيف .

ثالثًا: الغزل القصصي .

رابعًا: غزل المقدمات الشعرية .

خامسًا: غزل الرسائل الغرامية .

سادسًا: الغزل بالمذكر .

وقد ألقيت الضوء على تلك الاتجاهات، وبينت المراد بها، وملامحها وسماتها العامة في غزل الشعراء العباسيين، ودوافع نظم الشعراء فيها، والإكثار منها، وملامح التقليد والتطور والتجديد فيها، بما يكشف عن دور شعراء العصر العباسي في تطور ذلك الفن الشعري ، وما أضافوه من جديد فيه، وقدمت شواهد لها من غزل الشعراء العباسيين، معتمدًا في ذلك علي المنهج الوصفي التكاملي، الذي يكشف عن كل جوانب الشعر مضمونيًا وفنيًا، وعن ملامح تطوره علي مدي العصر كله، وما فيه من مظاهر التأثر والتأثير، والتقليد والتطور والتجديد، مضمونيًا وفنيًا، كما يكشف عن مشاعر الشعراء وأحاسيسهم تجاه المتغزل فيهن أو فيهم، وعن مدى صدق التجارب وواقعيتها في غزلهم.

وفي نهاية البحث خاتمة تضمنت موجزًا للبحث، وسردًا لنتائج دراسة موضوعه، ثم فهرس المصادر والمراجع .

هذا، وفي موضوع البحث بعض دراسات سابقة، ومنها:

– الغـزل فـي شـعر العصـر العباسـي الأول. كتـاب. للـدكتور عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي.

وهـو دراسـة أدبيـة، اقتصـرت علـي دراسـة شـعر الغـزل فـي العصـر العباسـي الأول، وتضـمنت الحـديث عـن: بواعـث الغـزل، والغـزل التقليـدي، والغـزل العفيـف، وآراء بعـض النقـاد فيـه، والعشـق الإلهـي والغـزل الحسـي، والغزل بالمذكر، ثم عرض للخصائص الفنية للغزل، مع تقديم شواهد شعرية في سياق ذلك كله من غزل بعض الشعراء، وذلك كله في إطار العصر العباسي الأول فقط.

– الغزل في الشعر العربي. كتاب. لسراج الدين محمد

وهو دراسة عامة موجزة، سرد فيها صاحبها نماذج شعرية من الغزل فـي عصـور الأدب العربـي، بـدأها صـاحبها بتقـديم مـوجز عـن مضـمون الكتاب، والغاية منه، مشيرًا إلي أنه سيتضمن أشهر ما قيل في الغزل، عند أشهر الشعراء، علي مدي عصور الأدب العربي، ثم إشارة موجزة إلي نشأة الغزل وشيوعه، وأهم أنواعه، وأهم صفات المحبوبة التي شاعت في قصائد الغزل، وتطور أسلوب الغزل، ثم عرض بعد ذلك للغزل في عصور الأدب العربي، حيث يقدم بتوطئة موجزة عن الغزل في كل عصر، ثم يقوم بعدها بسرد شواهد فقط من أشهر شعر الغزل عند أشهر شعراء كل عصر، دون أي تحليل أو تعليق، حيث اكتفي فقط بسرد شواهد من الغزل في العصر الجاهلي، وفي صدر الإسلام، وفي العهد الأموي، وفي العهد العباسي، وفي

العصر الأندلسي، وفي العصر الحديث، مكتفيًا بسرد تلك الشواهد متعاقبة وراء بعضها فقط، دون أي شيء آخر.

– الغزل عند العرب. كتاب. لحسان أبو رحاب

وهو دراسة عامة موجزة عن فن الغزل في العصور الأدبية الأولي، تضمنت الحديث عن: معني الغزل، وألفاظ الغزل، ونشأة الغزل وتطوره، ودواعيه، وشغف العرب به، وأثره، وعلاقته برقة الحس، وفي ثنايا ذلك إشارات إلي بعض شعراء الغزل في تلك العصور، ونماذج شعرية من غزلهم.

– ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول. كتاب. للدكتور حبيب السيد أبو جمعة.

وهو دراسة عامة موجزة لمظاهر التجديد المختلفة في شعر ذلك العصر، ومن بينها حديث موجز عن العشق الإلهي، والغزل بالمذكر، وتقديم شواهد عليهما.

– كتب (تاريخ الأدب العربي) بشكل عام، و(تاريخ الشعر العربي) بشكل خاص، التي تناولت تاريخ الأدب، أو تاريخ الشعر العربي في العصور الأدبية المختلفة، ومنها العصر العباسي، وتضمنت دراسات عامة موجزة عن فنون الشعر العربي في تلك العصور، ومن بينها فن الغزل.

– وغير ذلك من البحوث والدراسات الأدبية والنقدية، التي تناولت الشعر والشعراء في العصر العباسي، وبين دفتيها دراسات عامة عن فنون الشعر في ذلك العصر.

أما بحثي فيتناول شعر الغزل بكل اتجاهاته، وملامحه، وسماته العامة، في العصر العباسي كله، راصدًا سمات تلك الاتجاهات المضمونية

والفنية، ومتتبعًا ملامح التقليد والتطور والتجديد فيها، خلال العصر كله، مع عرض شواهد شعرية لها من سياق العصر كله، هادفًا من وراء ذلك إلي تحديد دور شعراء العصر العباسي في ذلك الفن الشعري، ومكانة شعر الغزل بين فنون الشعر العربي في ذلك العصر، وعلاقة فن الغزل بما ساد في بعض جوانب الحياة العباسية من مظاهر مختلفة، لاسيما في بعض جوانب الحياة الاجتماعية ، وبعض جوانب الحياة الحضارية، التي كان لها أثرها في ذلك الفن الشعري.

هذا، وواضح من سياق الدراسات السابقة، التي أشير إليها هنا، ومن سياق بحثي، أنه يوجد اختلافات كثيرة بينها وبين بحثي، من حيث اتجاهات وموضوعات ومحتوي ومضمون الغزل في بحثي، ومن حيث الشواهد الشعرية المختارة في بحثي، ومن حيث تحليل تلك الشواهد مضمونيًا وفنيًا في سياق بحثي.

وأرجو– بعد ذلك – أن يكون البحث قد حقق الهدف منه، وكشف بوضوح عن اتجاهات الغزل، ودوافعها وملامحها وسماتها في أشعار العباسيين، وأن تكون الشواهد الشعرية المختارة فيه للتطبيق قد دعمت الجانب النظري، وصادفت الصواب في مواضعها، وأن يكون في البحث ما يشفع لصاحبه في اختيار موضوعه وبحثه .

والله الموفق

توطئة

إطلالة موجزة على فن الغزل من الجاهلية حتى العصر العباسي

الغزل من الفنون الشعرية القديمة؛ لأنه يعكس العلاقة بين الرجل والمرأة، وإعجاب الرجل بها، وهذه العلاقة قديمة صاحبت الإنسانية منذ بدء الخليقة، ولهذا كان من الطبعي أن يكون تعبير الرجل عن تلك العلاقة وذلك الإعجاب قديمًا أيضًا .

وميل الرجل إلي المرأة من الأمور الغريزية التي فطر عليها، والغزل وسيلة للتعبير عن هذا الميل، يدفعه إليه الحب والرغبة والحنين، ولذلك كان الغزل من أقدم فنون الشعر؛ لاتصاله بنفس الشاعر، وتعبيره عن مكنونات تلك النفس.

ولعل مما يؤكد ذلك أن الغزل كان أوضح فنون الشعر عند امرئ القيس، الذي يعده كثير من النقاد والمؤرخين للشعر العربي أبا للشعر، ويجعلونه البداية الفعلية الفنية لهذا الشعر، فقد بلغ الغزل في شعره أقصى درجات الاكتمال والنضج الفني .

وفن الغزل هو أشد فنون الشعر لصوقا بالطبيعة الإنسانية، وأكثرها تعبيرًا عن العواطف الصادقة والأحاسيس الجياشة، وهو أصدق فنون الشعر وأبرزها تعبيرًا عن علاقة الرجل بالمرأة، ووصفًا لمشاعر الحنين والغرام، وهي نوازع إنسانية ثابتة، وغرائز فطرية دائمة لا مجال فيها للمصانعة، ولا دخل فيها للافتعال .

والغزل هو «حديث الشاعر عن المرأة، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر، ومن بيئة إلى بيئة، فتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية في علاقاته بالمرأة، وتارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة، وبيان مفاتنها التي استهوته، ومرة أخرى نراه يخاطب المرأة مستعطفاً، يكشف لها عن حبه لها، وافتتانه بها، ويذكر ما

يفعله فيه بعدها عنه من لواعج الشوق، وما يكابده من جراء ذلك .

والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لظروف بيئته وأخلاقيات مجتمعه، بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم، إذ المرأة عند العربي تمثل الحرم الذي يجب على الصغير والكبير أن يبذل حياته في حمايته، والإبقاء عليه نظيفاً من كل ما يشين» (١)

لكن نظرة الناس إلى هذا الحرم تختلف من بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، فبينما نجد في بعض البيئات والمجتمعات تقديسا لهذا الحرم، وإحاطته بهالة من الجلال، فإننا نجد في بعض المجتمعات والبيئات الأخرى هتكاً لحجاب هذا الحرم، وتحويله مضغة للأفواه وحديثاً للمجالس .

ولهذا كان طبعيًا أن يشهد الشعر العربي نوعين من الغزل، هما : الغزل العفيف، والغزل المادي الصريح، بجانب ما قد يظهر في كل عصر من موضوعات وأفكار ومعان حسب مقتضيات البيئة، وظروف العصر .

كما كان طبعيًا أيضًا أن نجد الغزل بنوعيه: العفيف، والمادي في العصر الجاهلي، تبعًا لاختلاف البيئة، فالبيئة البدوية يغلب عليها الغزل العفيف؛ لما تفرضه قيم تلك البيئة وتقاليدها على الشاعر من العزة والأنفة، وعدم التهتك أو الفحش في وصف محاسن المرأة.

وقوام هذا اللون من الغزل: الحديث عن صفات النفس، وجمال الروح، والشكوى من الهجر، ووصف لواعج الشوق، وتوهج الصبابة واحتدام الغرام، والوقوف عند محبوبة واحدة يعرف بها، وتعرف به.

والبيئة الحضرية يغلب عليها الغزل المادي الصريح، الذي هتك

(١) الأدب العربي بين البادية والحضر د. إبراهيم عوضين ،مطبعة السعادة– القاهرة– ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣، ص١٥٢.

حجاب المرأة، ولم يرع لها حرمة، ورأي فيها متعة الحواس، ومنهل الغرائز والشهوات، وتعلق بمحاسنها، وأوصافها المادية، وقد يتجاوز هذا اللون الوصف المادي، فيتحول إلى لون من الفحش والسقوط .

وقوام هذا اللون من الغزل: الوصف الحسي للمرأة، والحديث عن مقومات جمالها الجسدي، من صباحة الوجه، وأسالة الخد، وسعة العينين، وطول الجيد، وعذوبة الثغر، وطلاوة القد، ونهود الصدر، ودقة الخصر، وامتلاء الأرداف، وطيب المشم، وكرم العنصر، وطيب المنبت، ورفاهة العيش، وتيسر الحال، وتوفر الخدم، والتقلب في الترف، وما إلى ذلك من الصفات الجسدية والحسية التي تتبدى في المرأة .

ولما جاء الإسلام حد من الفحش، وأخذ الشعراء بالجادة، فقل شعر الغزل بعامة، واقتصر ما وجد منه – في معظمه – على مطالع القصائد، «فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأي صورة من صور التناول، اللهم إلا الغزل التقليدي في مطالع القصائد، إذ كان ما يشغلهم من أمور الدعوة أعلا صوتاً من ذلك، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لقيم الإسلام تمنعهم من الخوض في ذلك، فلم يكن الكثير منهم قد اتضح أمامه بعد، ما يرفضه الإسلام وما يقبله من ذلك» . (١)

ولا شك في أن الإسلام قد نهى عن الغزل الفاضح، والتهتك، وحرم وصف مفاتن المرأة، فكان ذلك سبباً مباشراً في قلة شعر الغزل في عصر صدر الإسلام أيضًا، وغلبه التقليد على ما وجد فيه من نماذج.

غير أن ذلك لم يمنع من وجود الغزل بصوره الجاهلية – في حدود ضيقة – عند شعراء المشركين؛ لأن صراعهم مع المسلمين، وانشغالهم بالرد

(١) السابق ص ٢٨١ .

على شعراء الإسلام، وتحميس المشركين لمحاربة المسلمين، قد صرفهم عن الغزل .

كما أن عصر صدر الإسلام لم يخل من بعض الشعراء الذين أفحشوا في بعض غزلهم، وساروا فيه على درب أمرئ القيس وأضرابه من شعراء الجاهلية، وصوروا بعض مغامراتهم الصريحة مع النساء، مخالفين بذلك روح الإسلام وتعاليمه، ويأتي في مقدمة هؤلاء سحيم عبد بني الحسحاس، الذي كان يذهب في شعره وغزله مذهب امرئ القيس في الصراحة والفحش، وتصوير المغامرات، ويجنح إلى الإفحاش و التعهر .

وفي العصر الأموي تطور فن الغزل تطورًا ملحوظًا، وبخاصة في بيئة الحجاز، التي نعمت بالثراء والغناء، وكل مظاهر اللهو، بتشجيع وتحريض من خلفاء بني أمية؛ لصرف أهلها عن التفكير في الثورة ضدهم، أو المطالبة بالخلافة.

وقد ساعد على تطور فن الغزل في هذا العصر أيضًا اهتمام الشعراء به، وانصرافهم إلى النظم فيه في كثير من الأحيان، مما أدى إلى تعدد موضوعاته واتجاهاته، حيث رأينا فيه أربعة أنماط من الغزل، وهي : الغزل التقليدي في مقدمات القصائد، الذي كان يأتي تقليدًا للجاهليين في افتتاح قصائد المدح والفخر والهجاء، وغيرها بالغزل، والغزل الحسي، الذي يتناول صفات المرأة الحسية، ومفاتنها الجسدية بعيدًا عن الفحش والتهتك، وكان هذا اللون كثيراً في العصر الأموي؛ لكثرة شعرائه، وطبيعة نظرتهم الحسية إلى المرأة، ولطبيعة الثراء والحرية اللذين نعم بهما الشعراء وبعض البيئات في ذلك العصر، والغزل القصصي الذي زخرت به بيئة الحجاز الحضرية، وتوفر عليه شعراؤها، وفي مقدمتهم عمر بن أبي ربيعة، الذي أبدع في تصوير مغامراته على طريقة سلفيه: امرئ القيس، وسحيم، والغزل العذري العفيف، الذي انتشر في بادية الحجاز وانقطع له بعض الشعراء

الذين عرفوا بالعذريين، وإن كانوا يمتون بصلة فنية إلى العذريين، في العصر الجاهلي، وفي مقدمتهم عنترة بن شداد .

وقد غلب على الغزل الأموي – إلا ما ندر – العفة والنقاء، والبعد عن الإفحاش، والتنزه عما يخدش الحياء، ويؤذي الشعور، وربما كان ذلك لغلبة الطابع البدوي على معظم بيئات العصر، وقرب الناس من العهد النبوي، وأن التقدم الحضاري والعمراني، والاجتماعي، وانتشار حياة اللهو والمجون والعربدة، لم يكن بالصورة التي كانت في العصر العباسي.

وفي العصر العباسي يغلب الجانب الحسي على فن الغزل، بفعل تأثير بعض مظاهر التقدم الحضاري والعمراني، والاجتماعي، وانتشار بعض مظاهر حياة اللهو والمجون، وكثرة الجواري، وتيسر الحصول عليهن، وكثرة الغلمان الماجنين، والاختلاط الشديد بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى، والتغير الواضح في طبيعة المرأة التي يتغزل فيها شعراء العصر العباسي .

وذلك العامل الأخير المؤثر في غزل العصر العباسي، الذي يتعلق بالمرأة التي عليها مدار الغزل، وتأثيرها في غزل العصر العباسي، وفي غلبه النزعة الحسية المادية عليه، يعد من أقوى العوامل المؤثرة في طبيعة الغزل العباسي، إضافة إلى عامل كثرة الغلمان الماجنين المنتشرين في الحانات والخمارات ومجالس الشراب والغناء، وفي القصور، وغيرها .

لكني سأفرد الحديث عن الغلمان والتغزل فيهم في اتجاه منفرد من اتجاهات الغزل فيما بعد، إضافة إلى العوامل الأخرى التي سيدور الحديث عنها في إطار الاتجاهات .

طبيعة المرأة في العصر العباسي وتطور فن الغزل:

أما عامل تغير طبيعة المرأة، وأثر ذلك في غزل العصر العباسي، وكثرة النزعة الحسية المادية عليه، فأقول :

لقد تغيرت المرأة كثيرًا في هذا العصر عن مثيلتها في العصور السابقة، فأصبحت – في الغالب– من الجواري و القيان التي انتشرت في كل مكان، وأصبحت تخالط الرجال وتحادثهم، وتمعن في التهتك والخلاعة، فشهد الشاعر بذلك امرأة جديدة لم يعهدها، امرأة تخالطه وتجالسه، بل وينال منها مبتغاه أحيانًا، فتغيرت مقاييس الجمال عنده، وتغير فن الغزل عنده في أوصافه وشكله، فظهر التغزل الفاحش الماجن، الذي يصور تلك المرأة الجديدة في خلاعة ومجون، بخلاف الغزل في العصور السابقة الذي كان يتغزل فيه الشاعر بامرأة عربية لم تنعم بقسط من الحرية، امرأة لا تزال محتشمة في خدرها، وهذا هو السر في غلبة الغزل العفيف على العصور السابقة، وكثرة شكوى الشعراء من الهجر والفراق فيه.

فالمرأة، التي هي مدار شعر الغزل، قد تغيرت في هذا العصر، فأصبحت «في الغالب أمة فارسية أو رومية أو هندية أو غير ذلك من أجناس الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي، وهي مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس إليهم، وتغدو وتروح في غير تحرج، هذا إن لم تكن مبتذلة تعيش في بيت من بيوت القيان .

أما المرأة قبل هذا – العصر – فكانت في الغالب عربية حرة متسترة في بيتها، لا يفارق الحجاب وجهها، ممنعة بين أهلها، لا تكاد تخالط أحدًا، أو تجد الحرية في تصرفاتها.

وهذا الخلاف في الواقع له تأثير كبير على تطور شعر التغزل؛ لأنه غير مقاييس الجمال عند الشعراء تغييرا واضحاً، وكيف لا يحدث هذا التغيير وهناك فارق كبير بين العربية والرومية أو الفارسية أو الهندية في

الملامح واللون، وفي القد، وفي كل ما يميز المرأة ويحدد جمالها . كذلك كان له تأثير آخر أخطر من ذلك وهو ظهور التغزل الفاحش المتهتك، الذي لا يرعى حرمة المرأة أو يصونها .

وكيف لا يظهر هذا النوع من التغزل والجواري – كما نعلم – قد نبغن في الخلاعة، وألوان المجون والتهتك في هذا العصر ».[1]

فالمرأة التي هي مدار شعر الغزل في هذا العصر كانت – في الغالب – أمة غير عربية، سافرة متهتكة، عاهرة فاحشة، ينال الشاعر – وغيره – منها ما يريد في سهولة ويسر أحيانًا.

ولذلك يجد المتأمل في غزل العصر العباسي كثرة أسماء الجواري التي تغزل الشعراء فيهن، وقلة النساء العربيات فيه، وهي بلا شك طبيعة العصر، وظروف الحياة الاجتماعية والحضارية فيه، ومظاهر اللهو والمجون التي انتشرت في بعض جوانب المجتمع العباسي.

وتغير المرأة في العصر العباسي لم يقف تأثيره عند كثرة الجواري اللائي تغزل الشعراء فيهن، وتردد أسمائهن في غزل العصر، بل شاركت بعضهن أيضاً في المطارحات الغزلية مع الشعراء، وأبدين سرعة بديهة في الرد عليهم، وأظهرن في هذه المطارحات شيئًا من التهتك والخلاعة كذلك .

ومما يصور جرأة الشعراء وتبذل الجواري في ذلك العصر «ما يرويه الحسين بن دعبل عن أبيه، قال : سمعت أبي يقول : بينا أنا جالس بباب الكرخ إذ مرت بي جارية لم أر أحسن منها وجهاً ولا قدًا، تتثنى في مشيها، وتنظر في أعطافها، فقلت متعرضاً لها :

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د. هدارة، دار المعرفة الجامعية–الطبعة الثالثة–١٩٨١م، ص٥٣٠، ٥٣١ .

دمـــوع عينـــي بهـــا انبســـاط ونـــوم عينـــي بـــه انقبـــاض

فأجابتني بسرعة فقالت :

وذا قليـــــل لمـــــن دهتـــــه بلحظهـــا الأعـــين المـــراض

فأدهشتني وعجبت منها، فقلت :

فهـــل لمـــولاي عطـــف قلـــب وللـــذي فـــي الحشـــا انقـــراض

فأجابتني غير متوقفة، فقالت:

إن كنـــت تهـــوى الـــوداد منـــا فـــالود فـــي دينـــا قـــراض

قال: فما دخل أذني كلام قط أحلى من كلامها، ولا رأيت أنضر وجهاً منها، فعدلت بها عن ذلك الشعر وقلت:

أتـــرى الزمـــان يســـرنا بـــتلاق ويضـــم مشـــتاقا إلـــى مشـــتاق

فأجابتني بسرعة، فقالت:

مـــا للزمـــان وللـــتحكم بيننـــا أنـــت الزمـــان فسـرنا بـتلاق » [١]

ومن هذا اللون ما نجده عند ابن الرومي في تغزله بالجارية المغنية (وحيد)، وكان يستحسنها ويستحسن صوتها وغناءها، فنظم قصيدة طويلة متغزلًا فيها وفي جمالها، واصفًا محاسنها ومفاتنها وجمال صوتها العذب الرخيم، وتعلقه الشديد بها، نجتزئ منها هنا بعض الأبيات، يقول فيها [٢]:

(١) الأغاني، ج١٩، ص:٤٧، ٤٨، ط الهيئة العامة للكتاب .

(٢) ديوان ابن الرومي، ج٢، تحقيق: د. حسين نصار-طبعة دار الكتب-١٩٧٤م، ص: ٧٦٢-٧٦٤ .

يـــا خَلِيلَـــيَّ تَيَّمَتْنـــي وَحيـــدُ ... فَفُـــؤادي بهـــا مُعَنَّـــىً عَمِيـــدُ
غـــادةٌ زانهـــا مـــن الغُصْـــن قَـــدٌّ ... ومـــن الظَّبـــي مُقلتـــان وجِيـــدُ
ظبيـــةٌ تســـكن القلـــوب وترعـــا ... هـــا وُقمْرِيَّـــةٌ لهـــا تغريـــدُ
تتغنَّـــــى كأنهـــــا لا تُغَنِّـــــي ... من سكونِ الأوصالِ وهي تُجيد
لا تَراهـــا هنـــاك تَجْحَـــظُ عـــينٌ ... لـــك منهـــا ولا يَـــدِرُّ وريـــدُ
مـــن هُـــذُوٍّ ولـــيس فيـــه انْقِطـــاعٌ ... وشُـــجُوٍّ ومـــا بـــه تبليـــدُ
مَـدَّ فـي شـأو صـوتها نَفَـسٌ كـا ... فٍ كأنفـــاس عاشـــقيها مَديـــدُ
فـــي هـــوى مثْلِهـــا يَخـــفُّ حَلـــيمٌ ... راجـــح حلْمُـــهُ ويَغْـــوى رشـــيدُ
مـــا تُعـــاطِي القلـــوبَ إلا أصـــابتْ ... بهواهـــا مـــنهُنَّ حيْـــثُ تُرِيـــدُ
وَتَـــرُ العَـــزْفِ فـــي يَـــدَيْها مُضَـــاهٍ ... وَتَـــرَ الزَّحـــف فِيـــهِ ســـهمٌ شَـــديدُ
حُسْـنُها فـي العيـون حسْـنٌ جديـدٌ ... فلهـــا فـــي القلـــوب حـــبٌّ جديـــدُ
خُلِقَـــتْ فِتْنـــةً غِنـــاءً وحُسْـــناً ... مـــا لهـــا فيهمـــا جميعـــاً نَدِيـــدُ
فَهْـــيَ نُعْمَـــى يميـــدُ منهـــا كَبيـــرٌ ... وهْـــيَ بلْـــوى يشـــيب منهـــا وليـــدُ

فالشاعر هنا يصف قد المغنية ومظاهر الجمال فيه وصفًا دقيقًا، ويصور أثر ذلك الجمال في نفسه كما يصف حلاوة صوتها، وروعة نغماته المثيرة، التي تحرك المشاعر والأحاسيس، ودفعت القلوب والعقول إلي التعلق بها، والهيام بحسنها، كما يتعلق بجمالها وحسنها الكبير والصغير، ولذلك كله فهي تصاحبه بجمالها وتأثيرها في كل وقت وفي كل زمان.

ومن التغزل في الجواري ما نجده عند البهاء زهير في بعض نماذج غزله، ومنه ما قاله في رومية، يصور جمالها الحسي الفتان، الذي خلب لبه[1]

(١) ديوان البهاء زهير، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد طاهر الجبلاوي-دار المعارف- الطبعة الثانية، ص٤٢.

وَغـــــــادَةٍ كَأَنَّهـــــــا شَـــمسُ الضُـــحى تَأَلَّقَـــت
كَـــم شَـــرِقَت بِـــدَمعِها عَينَـــيَ لَمّـــا أَشـــرَقَت
رومِيَّـــــــةٌ أَلحاظُهـــــا مِثـــلُ سِـــهامٍ رُشِـــقَت
مَمشـــوقَةُ القَـــدِّ لَهـــا صُـــدغٌ كَنـــونٍ مُشِـــقَت
أَمـــا تَـــرى الغُصـــونَ مِـــن خَجلَتِهـــا قَـــد أَطرَقَـــت
قَـــد جَمَعَـــت حُســـناً بِـــهِ أَلبابُنـــــــا تَفَرَّقَـــــت
فـــــي فَمِهـــــا مُدامَـــــةٌ صـــــــافِيَةٌ تَرَوَّقَـــــت
واعَجَبـــــا مِـــــن فِعلِهـــــا قَـــد أَســـكَرَت وَمـــا سَـــقَت

فالشاعر هنا يصف حسن تلك المرأة الرومية، ويصور مظاهر الحسن والجمال المختلفة فيها، فيراها غادة كشمس الضحى، ويصور مدي تأثير نظراتها الساحرة فيه، وقدها الحسن المثير، الذي أثر بشدة في عقولنا وقلوبنا، ويمعن في وصفه الحسي فيصور لذة ريقها ورقة فمها، اللذين يسكرانه ويؤثران فيه. إنه جمال حسي مثير ومؤثر.

وما قاله أيضًا في جارية اسمها (ملوك) يصف حسنها وجمالها، ويصور ما ظفر به منها:(١)

فَـدَيتُ مَـن قَـد أَنجَـزَت وَعـدَها وَجَـدَّدَت فـي الحُـبِّ لـي عَهـدَها
وَقَلَّـــدَتني فـــي الهَـــوى مِنَّـــةً يـــا شُـــكرَها مِنّـــي وَيـــا حَمـــدَها
زائِـــرَةٌ لَـــم أَدرِ إِذ أَقبَلَـــت أَثَغرَهـــا قَبَّلـــتُ أَم عِقـــدَها
تَمنَعُنـــي تَقبيـــلَ أَقـــدامِها لَكِنَّهـــا تَبـــذُلُ لـــي خَـــدَّها

(١) السابق: ص ٨٠ ، ٨١ .

حَسناءُ في الحُسنِ لَها المُنتَهى ... لا قَبلَهـــا فيـــهِ وَلا بَعـــدَها
تُقَصِّـــرُ الأَلسُـــنُ عَـــن وَصـــفِها ... لَـــو بالَغَـــت وَاِســـتَغرَقَت جُهـــدَها
إِنَّ مَلوكـــاً مَلَكَـــت مُهجَتـــي ... لا تَـــدعُني إِلّا بِيـــا عَبـــدَها

فالشاعر هنا يصور إنجاز محبوبته لوعدها، وتجديد عهد حبها له، ولذلك يشكرها ويحمدها، كما يصور تأثره الشديد بجمالها، إلي الحد الذي يجعله لا يدري هل قبَّل فمها أو عقدها، وهو يريد تقبيل أقدامها شكرًا وتقديرًا لها، لكنها تأبي وتمنحه خدها ليقبله، ويراها في منتهي الحسن والجمال لا قبلها ولا بعدها فيه، وهو، وغيره، عاجز عن وصف جمالها ومقصر في تصوير حسنها، ولذلك كله يري نفسه عبدًا لها، وما أحب ذلك في نفسه.

وقال أيضًا في (ملوك) يصف تعلقه الشديد بها، وأنه لن ينساها : (١)

وَحَسـناءَ مـا ذاقَـت لِغَيـري مَحَبَّـةً ... وَلا نَغَّصَـت لـي حُبَّهـا بِشَـريكِ
تُسـائِلُ عَـن وَجـدي بِهـا وَصَـبابَتي ... فَقُلـتُ أَمـا يَكفيـكِ مَـوتِيَ فيـكِ
وَكانَـت تُسَـمّيني أَخاهـا تَعَلُّـلاً ... فَقُلـتُ لَهـا أَفسَـدتِ عَقـلَ أَخيـكِ
تَرَكـتُ جَميـعَ النـاسِ فيـكِ مَحَبَّـةً ... فَيالَيـتَ بَعـضَ النـاسِ لـي تَرَكـوكِ
وَلَـم تَظلِمـي إِلّا بِقَولِـكِ قَـد سَـلا ... أَمِثلِـيَ يَسـلو عَنـكِ لا وَأَبيـكِ
وَلِلنـاسِ فـي الـدُنيا مُلـوكٌ كَثيـرَةٌ ... وَهَيهـاتَ مـا لِلنـاسِ مِثـلُ مَلـوكي

فالشاعر هنا يصور وفاء محبوبته له، واقتصارها عليه في الحب، وعدم وجود شريك له فيها، وهو يتعلق بها وجدًا وصبابةً، ويموت حبًا فيها وشوقًا إليها، ويشير إلي انها كانت تدعوه أخاها؛ تعللًا، فأكد لها أنها قد أفسدت

(١) السابق: ص ١٩١ ، ١٩٢ .

عقله، وجعلته هائمًا بجمالها وحسنها، ومنقطعًا لها في الحب، ولم يسلو عنها يومًا، ويؤكد أنه لا يوجد مثيل لها في الجمال والحسن ولذلك هام بها، ولم يتعلق بها.

فالنماذج السابقة في مجال تغير المرأة المتغزل فيها، تتسم بالوضوح التام والقرب من الأفهام، في مفرداتها وجملها وأساليبها، ولا يجد القارئ صعوبة في الوصول إلي مضامينها وغايات أصحابها من ورائها، إضافة إلي أن الصور الفنية فيها مثل: تصوير قد المغنية بالغصن، وعينيها بعيني الظبي، وتصويرها بالظبية والقمر، وتصوير الرومية بشمس الضحى، وألحاظها بالسهام، وغير ذلك، كلها صور من النوع المألوف القريب، التي تسهم في إيضاح المعني وتجسيده للمتلقي فيقف عليه بسهولة.

وهكذا نلاحظ أن الغزل قد ازدهر في العصر العباسي، بتأثير كثير من العوامل، التي وقفت وراء الشعراء، ودفعتهم دفعا إلى الإكثار منه في شعرهم، بل دفعتهم إلى الإكثار من الغزل الحسي المادي على وجه الخصوص، تماشياً مع بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية، و بعض مظاهر اللهو والمجون، وانتشار مجالس الغناء والشراب، التي تقلب فيها بعض شعراء العصر العباسي.

هذا، والنظرة المتأنية الدقيقة في غزل شعراء العصر العباسي، الذي امتلأت به دواوينهم، ودراسة ذلك الغزل دراسة عميقة، تقف بنا على عدة اتجاهات غزلية بارزة فيه، وإن كان يغلب عليها الطابع التقليدي؛ لأنها اتجاهات عرفت في الغزل منذ العصر الجاهلي، وسار على هديها شعراء العصر العباسي، وتحركوا في إطارها غالباً في غزلهم، لكن ليس معنى ذلك أنهم لم يضيفوا شيئاً من ملامح التطور والتجديد في إطار تلك الاتجاهات، فقد أضافوا إلى المعاني والأفكار والصور والصفات التي يخلعونها على

المرأة أو الغلمان أو الجواري في غزلهم، كما كانت لهم بعض مظاهر التجديد، سوف تتضح في الحديث عن الاتجاهات .

وسبيلنا الآن عرض اتجاهات الغزل في أشعار العباسيين .

أولاً: الغزل المادي الحسي:

إذا كان فن الغزل في العصر العباسي قد غلب عليه – كما قلنا – الاتجاه التقليدي، حيث سار شعراؤه على درب الشعراء السابقين في الغزل، فإن هذا العصر قد شهد غلبة الغزل المادي الصريح عكس العصر الأموي الذي غلب عليه الجانب العفيف، وذلك بتأثير البيئة الجديدة التي غصت بالإماء والجواري، وازدحمت بدور النخاسة، والمقينين، وشاع فيها اللهو والمجون، ومجالس الشراب والغناء، وبخاصة في بيئة العراق التي كثر فيها الموالي، وظفروا بقدر غير قليل من الحرية والنفوذ، فانحدر هذا اللون من الغزل إلى لون من السقوط والإسفاف والتهتك والمجون، ذلك أن أكثر الغزلين كانوا ينحدرون من أصلاب غير عربية، وكانوا متهمين في دينهم وأخلاقهم، فلم يردعهم دين عن الولوغ في حمأة الرذيلة، ولم يمنعهم خلق عن الولوج إلى مواخير اللهو والفساد حيث الإماء والجواري من الفرس والروم، ومن حولهن الكثير من الشعراء المجان، يصخبون ويصيحون، وتختلط المرائي بتأثير الغناء والشراب، فيجنح بهم الخيال أولاً، والتهتك ثانيا، إلي ضرب من الغزل الفاضح، الذي يتضح فيه التركيز على إبراز مفاتن الجسد، وتصوير المتع الحسية والرغبات المشبوبة.

وبذلك فتح الباب واسعًا في العصر العباسي « للغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي، والذي لا يدع فارقًا بين الإنسان والحيوان، وهو غزل لم يكن يعرفه، العرب في العصور الماضية، عصور الوقار والارتفاع عن درك الغرائز النوعية . حقًا عرفوا الغزل الصريح، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ

العباسيين في الصراحة، وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق، أو زاجر من دين » .[١]

ومن الغزل المادي الصريح ما نجده في قول بشار يصور واحدة من مغامراته مع إحدى صواحبه :[٢]

تَحَمَّـــلَ الظـــاعِنونَ فَـــاِدَّلَجوا وَالقَلـــبُ مِنّـــي الغَـــداةَ مُخـــتَلِجُ
بـــانوا بِخَـــودٍ كَـــأَنَّ رُؤيَتَهـــا بَـــدرٌ بَـــدا وَالظَـــلامُ مُـــرتَهِجُ
غَـــرّاءُ رَيّـــا العِظـــامِ آنِسَـــةٌ مَكســـورَةُ العَـــينِ زانَهـــا دَعَـــجُ
يـــا حُســـنَها إِذ تَقـــولُ مازِحَـــةً وَنَحـــنُ فَـــوقَ السَـــريرِ نَعـــتَفِجُ
لَقَـــد حَرِجنـــا وَهـــيَ مُعـــانِقَتي تَلثَمُنـــي وَالصَـــباحُ مُنـــبَلِجُ
فَقُلـــتُ يـــا مُنيَتـــي وَيـــا سَـــكَني مـــا فـــي عِنـــاقٍ وَقُبلَـــةٍ حَـــرَجُ

الشاعر هنا يصور مفاتن المرأة، وروعة حسنها، وجمال شكلها، ورقة عظامها، كأنها تتمايل غنجًا عند مشيتها، ولذلك كله ما له من حبها والتعلق بها سلوة ولا فرج ولا مفر، فكل ما فيها منظر جميل مثير مبهج للعين، إضافة إلي ما يصدر منها من دلال ورقة فوق السرير، ومن معانقة ولثم وقبلة للوداع عند الصباح. إنه غزل حسي مادي واضح، ومفردات الشاعر وصوره المألوفة زادته وضوحًا.

ومنه قول أبي نواس يصور ما حدث بينه وبين امرأة عند تسلم الحجر الأسود، في غزل صريح فاحش:[٣]

(١) العصر العباسي الأول د.شوقي ضيف، دار المعارف-القاهرة- الطبعة السابعة، ص ١٧٧.
(٢) ديوان بشار، ج٢، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور-طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة-١٩٥٤م، ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) ديوان أبي نواس ص: ١٩٨. دار صادر – بيروت- لبنان.

وَعاشِـــــقَينِ التَـــــفَّ خَـــــدّاهُما عِنـدَ التِثـامِ الحَجَـرِ الأَسـوَدِ
فَاشـــتَفِيا مِـــن غَيـــرِ أَن يَأثَمـــا كَأَنَّمـــا كانـــا عَلـــى مَوعِـــدِ
لَـــولا دِفـــاعُ النـــاسِ إِيّاهُمـــا لَمـــا اســـتَفاقا آخَـــرَ المُســـنَدِ
ظِلنـــا كِلانـــا ســـاتِرٌ وَجهَـــهُ مِمّـــا يَلـــي جانِبَـــهُ بِاليَـــدِ
نَفعَـلُ فـي المَسـجِدِ مـا لَـم يَكُـن يَفعَلُـهُ الأَبـرارُ فـي المَسـجِدِ

إنه غزل مادي صريح وفاحش، وما زاد من ذلك كون الشاعر يصور ذلك عند التثام الحجر الأسود في الكعبة، وكأنه كان علي موعد معها لهذا اللقاء، وقد رفع كل منهما يده ليسترا الوجهين، وقد راحا في نشوة مغيبة، أيقظهما منها تدافع الناس أثناء الطواف، ويمعن الشاعر في الصراحة والفحش في البيت الأخير، فيشير إلي أنهما يفعلان في المسجد ما لا يفعله الأبرار.

ومفردات الشاعر وعباراته وصوره واضحة ومألوفة لا غرابة فيها ولا غموض.

ويزداد هذا اللون فحشًا كلما مضى بنا الزمن في العصر العباسي، وذلك للتحلل والفساد اللذين سادا بعض جوانب المجتمع العباسي، وكثرة الجواري والإماء اللاتي « لعبن دورًا واسعًا في دفع المجتمع العباسي نحو الصبابة والعشق، وكان منهن من ينحرفن عن الطريق السوي، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون دينا ولا خلقاً ولا عرفاً. وكان ذلك سببًا في أن يكثر الغزل الإباحي الذي لا يحتشم فيه الشاعر، بل الذي يعبر فيه أحيانًا عن جوعه الجسدي وغرائزه الحيوانية، فظلت لموجة الغزل المكشوف حدتها ، وكانت دور القيان من أسباب هذه الحدة، إذ كان بعض

جواريها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون» .[١]

ومن ذلك ما نجده في قول علي بن الجهم يصور مقامه مع محبوبته ليلا، وتعلقه الشديد بها، وقربه منها، ولقاءه بها بَعْدَ بُعْدٍ واشتياق، وتعانقهما الشديد إلي الحد الذي لا يسمح بمرور الراح من بينهما إذا سكبت عليهما: [٢]

ذَرينـي أَمُـت وَالشَـملُ لَـم يَتَشَـعَّبِ وَلا تَبعُـدي أَفـديكِ بِـالأُمِّ وَالأَبِ
سَـقى اللهُ لَـيلاً ضَـمَّنا بَعـدَ فُرقَـةٍ وَأَدنـى فُـؤاداً مِـن فُـؤادٍ مُعَـذَّبِ
فَبِتنـا جَميعًـا لَـو تُـراقُ زُجاجَـةٌ مِـنَ الـراحِ فيمـا بَينَنـا لَـم تَسَـرَّبِ

ومن هذا اللون قول ابن المعتز يصور ما ناله من محبوبته من عناق وقبل تحت الظلام، وعيون الرقباء مشغولة عنهما، ما سمح لهما بالقبل، وتحقيق أمله في ذلك:[٣]

وزائـــر زارنـــي علـــى عجـــل منتقـــب الـــوجنتين بالخجـــل
قـــد كـــان يســـتكثر الكتـــاب لنـــا فجـــاد بالاعتنـــاق والقبـــل
يقـــوده الشـــوق خائفـــا وجـــلا تحـت الـدجى والعيـون فـي شـغل
قبلـــت منـــه الـــذي أوملـــه بـــل الـــذي كـــان دونـــه أملـــى

ومنه قول المتنبي يصور جمال المحبوبة، وبياضها، وحمرة خدودها،

(١) العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف، دار المعارف–القاهرة–الطبعة التاسعة، ص ٢٢٢ .
(٢) ديوان علي بن الجهم، خليل مردم . طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق، ص: ٩٥
(٣) ديوان ابن المعتز ج١، تحقيق: د. محمد بديع شريف–دار المعارف، ص: ٤٠٣ .

وسحر عيونها الفتاكة، وطلعتها التي تشبه طلعة البدر، ونظراتها التي تشق القلوب والجلود كالسهام، وأثر قبلاتها وروعة رشفات فمها، وكلها صفات حسية واضحة، وقد زاد من وضوحها مفردات الشاعر وصوره المألوفة :[1]

كَـــم قَتيـــلٍ كَمـــا قُتِلـــتُ شَـــهيدِ ... بِبَيـــاضِ الطُلـــى وَوَرِدِ الخُـــدودِ

عَمـــرَكَ اللهُ هَـــل رَأَيـــتَ بُـــدوراً ... طَلَعَـــت فـــي بَراقِـــعٍ وَعُقـــودِ

رامِيـــاتٍ بِأَســـهُمٍ ريشُـــها الهُـــد ... بُ تَشُـــقُّ القُلـــوبُ قَبـــلَ الجُلـــودِ

يَتَرَشَّـــفنَ مِـــن فَمـــي رَشَـــفاتٍ ... هُـــنَّ فيـــهِ أَحلـــى مِـــنَ التَوحيـــدِ

ومن هذا اللون أيضًا قول البهاء زهير في جارية اسمها (ملوك)، يصور إنجازها لوعدها له، وحفاظها علي عهد حبها له، ومواصلة ذلك الحب، مما استدعي أن يتوجه لها بالشكر والحمد، وجعلته هائمًا بها هيامًا جعله لا يدري أقبَّل ثغرها أم عقدها، وأراد تقبيل أقدامها شكرًا لها، لكنها رفضت وبذلت له خدها يقبله، ونحن لا نجد صعوبة في إدراك معني ذلك كله من خلال أبياته، التي يقول فيها :[2]

فَـــدَيتُ مَـــن قَـــد أَنجَـــزَت وَعـــدَها ... وَجَـــدَّدَت فـــي الحُـــبِّ لـــي عَهـــدَها

وَقَلَّـــــدَتني فـــــي الهَـــــوى مِنَّـــــةً ... يـــا شُـــكرَها مِنّـــي وَيـــا حَمـــدَها

زائِـــــرَةٌ لَـــــم أَدرِ إِذ أَقبَلَـــــت ... أَثَغرَهـــــا قَبَّلـــــتُ أَم عِقـــــدَها

تَمنَعُنـــــي تَقبيـــــلَ أَقـــــدامِها ... لَكِنَّهـــــا تَبـــــذُلُ لـــــي خَـــــدَّها

(١) ديوان المتنبي، ج٢، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، ص٣٨.

(٢) ديوان البهاء زهير: ص ٨٠ ، ٨١ .

وقوله أيضًا في ليلة قضاها على غير موعد: (١)

أَتَـــت بَغتَـــةً وَمَضَـــت مســـرعَةً ... وَمـــا قَصَّـــرَت مَـــعَ ذاكَ القِصَـــر
بِغَيـــــرِ اِحتِفـــــالٍ وَلا كُلفَـــــةٍ ... وَلا مَوعِـــــدٍ بَينَنـــــا يُنتَظَـــــر
فَقُلـــتُ وَقَـــد كـــادَ قَلبـــي يَطيـــ ... ـرُ سُـروراً بِنَيـلِ المُنـى وَالـوَطَر
أَيـــا قَلـــبِ تَعـــرِفُ مَـــن قَـــد أَتـــا ... كَ وَياعَينِ تَدرينَ مَن قَد حَضَر
وَيـــا قَمَـــرَ الأُفـــقِ عُـــد راجِعـــاً ... فَقَد باتَ في الأَرضِ عِندي قَمَر
وَيـــا لَيلَتـــي هَكَـــذا هَكَـــذا ... وَبِـــاللَهِ بِـــاللَهِ قِـــف يـــا سَـــحَر
فَكانَـــت كَمـــا نَشـــتَهي لَيلَـــةً ... وَطـــالَ الحَـــديثُ وَطـــابَ السَـــمَر
خَلَونـــا وَمـــا بَينَنـــا ثالِـــثٌ ... فَأَصـــبَحَ عِنـــدَ النَســـيمِ الخَبَـــر

الشاعر يصور هنا في وضوح ما حدث في تلك الليلة، التي زارته فيها المحبوبة، علي غير موعد، فجعلت قلبه يطير فرحًا بها وسرورًا للقائها، فقد حضرت القمر الساحر، التي تثيره، وتحرك مشاعره بجمالها، فتمني توقف السحر، لتطول تلك الليلة الجميلة التي يشتهيها، ليمتد الحديث بينهما، ويطيب السمر، فكانت ليلة جميلة كما كان يشتهيها، حيث قضاها في خلوة مع محبوبته، لا ثالث بينهما.

وانظر إلى مفردات الشاعر وجمله وعباراته، وما تتسم به من وضوح وألفة، فكشفت عن معانيه، ونقلت مشاعره، وترجمت أحاسيسه، في وضوح تام.

وبرغم موجة التهتك والفحش التي سادت الغزل الحسي في ذلك العصر، فإن ذلك لم يمنع من وجود غزل حسي بعيد عن الموجة الإباحية والصراحة

(١) السابق ص: ١٢٥ .

المادية، فهو يتناول أوصاف المرأة الحسية، متغزلاً في جمالها ورقتها دون فحش أو إسفاف .

ومن هذا اللون ما نجده في قول أبي نواس يتغزل في جمال محبوبته (جنان)، واصفًا حمرة خديها، وكثرة محاسنها، وجمال ورقة كل جزء فيها، ووجهها الذي يشبه البدر ويدفعه إلى الشراب دون عربدة؛ ليستمتع بجمالها وحسنها :(١)

وَذاتِ خَـــــــدٍّ مُـــــــوَرَّد ... فَتّانَـــــــةِ المُتَجَـــــــرَّد

الحُســـنُ فـــي كُـــلِّ جُـــزءٍ ... مِنهـــا مُعـــادٌ مُـــرَدَّد

فَبَعضُـــــهُ فـــي اِنتِهـــاءٍ ... وَبَعضُـــــهُ يَتَوَلَّـــــد

وَكُلَّمـــا عُـــدتَ فيـــهِ ... يَكـــونُ بِـــالعَودِ أَحمَـــد

فَاِشـــرَب عَلـــى وَجـــهِ بَـــدرٍ ... رَيّـــانَ غَيـــرَ مُعَربِـــد

ومنه قول البحتري في وصف حبيبته (علوة)، وتصوير جمالها الفاتن، ورائحتها الذكية، وروعة محاسنها التي تشبه أزهار الروضة المنيرة، كل ذلك دفعه إلى التعلق بها، غير آبه لما يفعله العازل في حبه لها، وتعلقه بها: (٢)

يـــا مَوعِـــداً مِنهـــا تَرَقَّبتُـــهُ ... وَالصُـــبحُ فيمـــا بَينَنـــا مُســـفِرُ

هَمَّـــت بِنـــا حَتّـــى إِذا أَقبَلَـــت ... نَـــمَّ عَلَيهـــا المِســـكُ وَالعَنبَـــرُ

يـــا مُزنَـــةً يَحتَثُّهـــا بـــارِقٌ ... وَرَوضَـــةً أَنوارُهـــا تَزهَـــرُ

مـــا أَنصَـــفَ العـــاذِلُ فـــي حُـــبِّكُم ... بِمِـــثلِكُم مَـــن يُبتَلـــى يُعـــذَرُ

(١) ديوان أبي نواس ص: ١٩٧ . دار صادر– بيروت– لبنان .

(٢) ديوان البحتري ج٢ ، تحقيق: حسن كامل الصيرفي– الطبعة الثانية–دار المعارف– القاهرة– ١٩٧٣م ، ص ٩٢١ .

ومنه قول السري الرفاء مصورًا مفاتن محبوبته، ومبرزا عناصر الجمال الحسي فيها، فهى قمر ينسب إليه كل حسن وجمال، وجبينها صبح، وقوامها غصن رطيب أهيف رقيق مياس، ووجهها يحمل كل مظاهر الجمال والحسن، وهي تشبه الورد والنرجس، وكلها أوصاف حسية، أوضحتها مفردات وتراكيب وصور واضحة:(١)

قَمَرٌ تَفَرَّدَ بالمَحاسِنِ كلِّها ... فإليه يُنسَبُ كلُّ حُسْنٍ يُوصَفُ

فَجَبِينُهُ صُبْحٌ وطُرَّتُه دُجىً ... وقَوامُه غُصْنٌ رطيبٌ أهيَفُ

للهِ ذاك الوجهُ كيفَ تألَّفَتْ ... فيه بدائِعُ لم تكنْ تَتألَّفُ

وَرْدٌ يُعَصْفِرُهُ الحَياءُ ونَرْجِسٌ ... يُغْضي إذا طالَ العِتابُ ويُطْرَفُ

وينفذ تميم بن المعز إلى معنى غزلي بديع دقيق، يتمثل في أنه حين ينظر إلى صاحبته، يراها وقد حجبت حسنها وجمالها صونًا عن عيون الناظرين، ولكنه يرجوها أن تطل بنورها على الناس، فنورها أقوى من نور الشمس والقمر، كما أن كثرة النظر إلى الحسن والجمال لا تنقص منهما شيئًا، يقول في ذلك: (٢)

لا تحجبي عن عيون الناظرين سَنَا ... هذا الجبينِ ولا ظلماء ذا الشعرِ

قالت أصون بديعَ الحسن قلت لها ... لا ينقص الحسنَ يوماً كثرةُ النظرِ

لم يسفر البدر عن عينٍ ممرّضة ... كما سفرِت ولا عن مبسِم خطر

يزيد نورا مكانٌ أنتِ نَيّره ... على ضياءِ مكانِ الشمس والقمر

---

(١) ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح: كرم البستاني، مراجعة: ناهد جعفر، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٠٨.

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي،ص٢٤-مطبعة دار الكتب المصرية-الطبعة الأولي-١٣٧٧هـ ، ١٩٧٥م.

ومن هذا اللون ما قاله البهاء زهير في رومية واصفاً مفاتنها ومحاسنها التي أسرته، فهي كشمس الضحى في تألقها، وألحاظها سهام قاتلة، وهي ممشوقة القد، قد خجلت الغصون من روعة وحسن ورقة قدها، وقد ملكت عقولنا وقلوبنا بحسنها وجمالها، إنها أوصاف واضحة، كشفتها مفردات وتراكيب مألوفة، وأفصحت عنها صور مألوفة أيضًا :(١)

وَغـــــــادَةٍ كَأَنَّهـــــــا شَـــمسُ الضُـــحى تَأَلَّقَـــت

رومِيَّـــــــةٌ أَلحاظُهـــــــا مِثـــلُ سِـــــهامٍ رُشِـــقَت

مَمشـــــوقَةُ القَـــــدِّ لَهـــــا صُـــــدغٌ كَنـــونٍ مُشِـــقَت

أَمـــا تَـــرى الغُصـــونَ مِـــن خَجلَتِهـــا قَـــد أَطرَقَـــت

قَـــد جَمَعَـــت حُســـناً بِـــهِ أَلبابُنـــــــا تَفَرَّقَـــــــت

هذا، والنماذج السابقة للغزل الحسي المادي تتسم غالبًا بالوضوح والقرب من الأفهام، ويسهل الوصول إلى معانيها وأفكارها، حيث يتضح من سياقها اختيار مفرداتها بعناية، وسلاسة تراكيبها وسلامتها، على الرغم من وجود بعض المفردات الغريبة، مثل: (خود- فادلجوا- مختلج- مرتهج- دعج- نعتفج) عند بشار، (منتقب) عند ابن المعتز، (الطلى- أثلة- براقع- خمصانة- الجلمود) عند المتنبي، (ريان) عند أبي نواس، (يحتثها) عند البحتري، (طرته- يعصفره) عند السري الرفاء، (ممرضة) عند تميم ابن المعز، لكنها أيضًا لا تستعصي على الأفهام، حيث يمكن إدراك معانيها والمراد بها من سياق أبياتها، ومن المعاجم اللغوية بسهولة، كما أن الصور الفنية في الأبيات من النوع القريب المألوف، الذي لا يستعصي على الأفهام

(١) ديوان البهاء زهير: ص ٤٢ .

إدراك جمالها وغاية الشعراء من ورائها، ومنها مثلًا: تصوير المرأة بالبدر عند بشار، وتشبيه الخدود بالورد، وعيون المحبوبة بعيون المها، والمحبوبة بالبدور، وأسهمها تشق القلوب والجلود عند المتنبي، وتصوير المحبوبة بالقمر، عند البهاء زهير، وتصوير الخد بالورد، والوجه بالبدر، عند أبي نواس، وتصوير المرأة بالمزنة والروضة، عند البحتري، وتصويرها بالقمر، وجبينها بالصبح، وقوامها بالغصن الرطيب، وبالورد والنرجس، عند السري الرفاء، وتصويرها بالقمر، والجبين بالسنا، وتصويرها بالبدر، وبالشمس والقمر، عند تميم بن المعز، وتصويرها بشمس الضحى، وألحاظها بالسهام، و التشخيص في القد الممشوق تخجل منه الغصون، عند البهاء زهير.

كل تلك الصور من النوع القريب المألوف، وقد زادت الأبيات وضوحًا وجمالًا.

هكذا نجد أن الغزل الحسي المادي في العصر العباسي قد غلب عليه التهتك والإباحية، وبرز الفحش في كثير من نماذجه، وأنه قد التزم الرقة والعفة في وصف محاسن المرأة في بعض نماذجه الأخرى .

ثانيًا: الغزل العفيف:

وهو لون من ألوان الغزل التي عرفت في الشعر العربي من يوم أن وجد حتى يومنا هذا؛ لأنه مرتبط بطبيعة الناس في كل زمان ومكان في هذا المجال، فمنهم العفيف الذي ينأى بنفسه عن الدنايا، ومنهم من ينغمس في الدنايا، وهذا كله يؤثر على شعر الغزل وشعرائه.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن شعراء العصر العباسي قد مزجوا في غزلهم بين الألوان الأربعة، فلم يتفرد شاعر منهم بلون معين مثلما كانت الحال في العصور السابقة، وإن كنا لا نمنع تفرد العباس بن الأحنف بالغزل

العفيف، ويقترب منه البهاء زهير.

كما ينبغي أن نشير هنا إلى أن هذا اللون العفيف في العصر العباسي يعد امتدادًا طبعيًا لغزل عنترة في العصر الجاهلي، وغزل العذريين في العصر الأموي، فهو لا يتعرض لجسد المرأة، أو مفاتنها الخارجية، «فمداره شعور المحب نفسه وتأثيره في نفس المحب، ومدى ارتباطه به واندماجه معه، وموقف الحبيبة من صاحبها في الصد والوصال، إلى ما سوى ذلك من النواحي المعنوية التي لا تتعرض لمواضع حسية في المحبوبة» (١)

فقد تأثر الشعراء كثيرًا بهذا اللون العفيف في العصور السابقة «فاستطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح الموجة المادية الحادة، حتى عند الشعراء الماجنين، الذين كانوا يستظهرونه ويتلونه، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها، بل كانوا يرون فيه حبا عذريًا عفيفًا كله تحفظ واحتشام، وكله عذاب وآلام، وما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العذريين من الحب السامي، الذي يوقد في القلوب جذوة لا تنطفئ، والذي يدلع فيه جحيمًا من العذاب لا يطاق. وكل ذلك سرى في نفوس الغزلين العباسيين، حتى الماجنين منهم، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبة ما أذكى جذوته، ومن أجل ذلك تقرأ عند بشار وأبي نواس وغيرهما من المجان قطعًا من الحب العفيف البريء، الذي يرتفع عن المادة والحس» .(٢)

ومن هذا اللون العفيف ما نجده في قول بشار يصور سهاد قلبه، وشقاءه في الحب، وشدة الصبابة عليه، ولوعته في الحب، ويطلب إليه

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د. هدارة ص ٥٣١ .

(٢) العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف ص ١٧٧ ، ١٧٨ بتصرف .

التعزي أمام عناد الحبيب، وتعذيبه له، وكأن حبه والحفاظ عليه أصبح ذنبًا له:[١]

إذا أَصــبَحتَ صَــبَّحَكَ التَصــابي وَأَطــرابٌ تُصَــبُّ عَلَيــكَ صَــبّا
وَتُمســي وَالمَســاءُ عَلَيــكَ مُــرٌّ يُقَلِّبُــكَ الهَــوى جَنبــاً فَجَنبــا
أَتُظهِــرُ رَهبَــةً وَتُسِــرُّ رَغبــاً لَقَــد عَــذَّبتَني رَغبــاً وَرَهبــا
أَلا يــا قَلــبُ هَــل لَــكَ فــي التَعَــزّي فَقَــد عَــذَّبتَني وَلَقيــتُ حَســبا
وَمــا أَصــبَحتَ تَأمُــلُ مِــن صَــديقٍ يَعُــدُّ عَلَيــكَ طــولَ الحُــبِّ ذَنبــا

وينبغي أن نشير إلى أن شعراء هذا اللون قد وقفوا عند محبوبة واحدة يديرون عليها غزلهم، ويجعلونها محورا له، ويتحدثون عنها في عفة ونقاء.

وشعراء هذا اللون كثيرون، أبرزهم على الإطلاق العباس بن الأحنف الذي «لم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني» .[٢]

ومحبوبته (فوز) يتغزل فيها غزلاً عفيفًا، ويتغنى بحبها كثيرًا في شعره، مصورًا عذابه وتألمه في هذا الحب، فقد شفه الهوى، وأسقمه الجوى؛ لكثرة ما عانى من طول الفراق.

ومن غزل (العباس) العفيف قوله :[٣]

(١) ديوان بشار ج ١، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور– طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة– ١٩٥٠م، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢) الأغاني ج ص ٣٥٢ . ط دار الكتب .
(٣) ديوان العباسي بن الأحنف: ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، دار صادر، بيروت ،لبنان، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

وَمـــا بَينَنـــا مِـــن ريبَـــةٍ فَيُراقِبـــا وَلا مِثلُهـا يُرمـى بِسَـوءٍ وَلا مِثلـي
وَإِنّـــي لَأَرعـــى حَـقَّ فَـوزٍ وَأَتَّقـــي عَلَيهـــا عُيـــونَ الكاشِـــحينَ ذَوي
وَإِنّـــي وَإِيّاهـــا كَمـــا شَـفَّنا الهَـوى لَأَهـلُ حِفـاظٍ لا يُـدَنَّسُ بِالجَهـلِ

فهو هنا يؤكد على عفته ومحبوبته في الحب، فليس بينهما ما يدعو إلى الريبة والمراقبة لهما، ولا مثلها ولا مثله يمكن أن يرميا بسوء، فلم يرتكبا ما يدعو إلى ذلك، فهو يرعى محبوبته (فوز)، ويحافظ عليها، ويقيها من عيون الكاشحين والرقباء، وقد شفهما الهوى والحب الصافي، كما أنهما محافظان لا يدنسهما الجهل ولا الحرام.

فهو غزل عفيف حقًا، صاغه الشاعر في أسلوب سهل واضح قريب من الأفهام، لا صعوبة ولا غموض فيه.

ومن تولهه الشديد قوله:(١)

أَزَيـــنَ نِســـاءِ العـــالَمينَ أَجيبـــي دُعـــاءَ مَشـــوقٍ بِـــالعِراقِ غَريـــبِ
كَتَبـــتُ كِتـــابي مـــا أُقـــيمُ حُروفَـــهُ لِشِـــدَّةِ إِعـــوالي وَطـــولِ نَحيبـــي
أَخُـطُّ وَأَمحـو مـا خَطَطـتُ بِعَبـرَةٍ تَسُحُّ عَلى القُرطاسِ سَحَّ غُروبِ

فهو يتشوق إليها، ويتطلع إلى إجابتها دعوته، التي وجهها لها في كتابه، لا يدري ما حروفه؛ لشدة ما أصابه من فراقها وهجرها، ونحيبه المتواصل بسبب ذلك، حتى أنه كل ما يخطه في الكتاب تمسحه دموعه التي يسحها حزنًا وألمًا؛ لفراقها.

ما روعة ذلك الغزل، وما أصدقه، وما أوضح عفته، وما أقرب أسلوبه

(١) السابق ص٢١.

من الأفهام.

ومن شعراء هذا اللون عكاشة بن عبد الصمد، ومحبوبته (نُعَيْم). ومن شعره الذي يصور لهفته ووجده، وتعلقه الشديد بمحبوبته حتى ليستعذب اسمها على لسانه فيردده في أبياته، استعذابًا له، وتشوقًا إليه، كما يصور تأثره الشديد ببعدها عنه، وبكاءه المتواصل بسبب ذلك، ومن شدة تعلقه بها، وشوقه إليها، كأنه يراها في كل مكان، يقول :(١)

أنعيم حبك سلنى وبرانى ... وإلى الأمر من الأمور دعانى
أنعيم لو تجدين وجدي والذي ... ألقى بكيت من الذي أبكانى
أنعيم سيدتى عليك تقطعت ... نفسى من الحسرات والأحزان
أنعيم قد رحم الهوى قلبى وقد ... بكت الثياب أسى على جثمانى
أنعيم وانحدرت مدامع مقلتى ... حتى رحمت لرحمتى إخوانى
أنعيم مثلك الهيام لمقلتى ... فكأننى ألقاك فى كل مكان

ويمضي بنا الزمن في العصر العباسي فنجد تيار الغزل العفيف يسير جنبا إلى جنب مع تيار الغزل الصريح، وإن كانت الغلبة لهذا اللون الأخير لظروف بعض مظاهر حياة العصر، وتفشي المجون واللهو والعربدة في بعض جوانب البيئة العباسية، وكثرة الإماء ودور النخاسين، في بعض جوانب الحياة الاجتماعية.

والذي لا شك فيه أن طبيعة الشاعر وخلقه، وارتباطه بمحبوبة واحدة، وصدقه في حبه، وهروبه من حياة اللهو والمجون، كل ذلك كان وراء انتشار الغزل العفيف في هذه البيئة التي تغص بعض جوانبها بالجواري والقيان

(١) الأغاني، ج٣، ص ٢٦٦ . ط دار الكتب .

ودور اللهو، ومجالس الشراب والغناء، والمظاهر التي تشجع على شيوع الغزل المادي.

ومن هذا اللون العفيف أيضًا، ما نجده في قول خالد بن يزيد الكاتب يشكو حاله في حبه، وما هو فيه من ألم وعذاب وسهاد، ويصور عبراته وهي تعبر عما يجيش في نفسه من حزن بعدم لقاء محبوبته:(١)

وَضـــعَ الـــدُّموعَ مواضـــعَ الحُـــزنِ حـــيُّ التَّســـهُّدِ ميِّـــتُ الجَفـــنِ
عبراتـــهُ تُنطِـــقُ مـــا ضـــمِّنت أحشـــاؤُهُ ولســـانُهُ يكنـــي
فـــي كـــلِّ جارحـــةٍ لـــهُ مُقـــلٌ تبكـــي علـــى قلـــبٍ لـــهُ رَهـــنِ
لـــم يبـــقَ إلا حـــينَ أســـلمَهُ قـــدرٌ للحظـــةِ واحـــدِ الحُســـنِ

ولابن المعتز مقطوعات كثيرة في الغزل العفيف، ومن ذلك قوله يصور عذابه في الحب، وتألمه لفراق المحبوبة، وبكاءه المدرار، الذي يشبه الدم والذي لا يتوقف، بينما يتوقف دمع السحاب، ومحبوبته لا تشعر به، ولا بما هو فيه من عذاب :(٢)

لـــى بكـــاءٌ وللســـحابِ بكـــاءٌ ومحلـــى الهـــوى وتلـــك الهـــواء
نحـــن فـــى حـــالتين شـــتى وفيمـــا قـــد بـــدا للعيـــون منـــا ســـواء
يـــا جفـــونَ السِّـــحابِ دمعَـــكِ يفنـــى عـــن قليـــل ومـــا لـــدمعى فِنَـــاء
أنـــا أبكـــى هـــوى وتبكـــين كرهـــا ودمـــوعى دم ودمعـــك مـــاء

والوأواء الدمشقي كانت له قدرة خارقة على تصوير اللوعة وآلام الحب،

(١) طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج– الطبعة الرابعة– دار المعارف– لابن المعتز، ص ٤٠٥ .
(٢) ديوان ابن المعتز ج١، ص ٣٠٨ .

ومن ذلك قوله يصور فرحته بزيارة محبوبته التي هجرته طويلًا، وتوقفت عن زيارته، وما قاله الناس له عن زيارتها له، فقد زاره البدر المنير، بعد فراق طويل، دفعه إلى بكاء شديد يدير الرحى :(١)

أَتــاني زائِــرًا مَــنْ كــانَ يُبــدي ... لِــيَ الهَجْــرَ الطويــلَ وَلا يَــزورُ
فقــالَ النَّــاسُ لمَّــا أَبصَــرُوهُ ... لِيهْنِــكَ زارَكَ البَــدْرُ المُنيــرُ
فقلــتُ لَهُــمْ ودمــعُ العَــيْنِ يجــري ... عَلــى خَــدِّي لَــهُ دُرٌّ نَثيــرُ
متــى أَرْعــى رِيــاضَ الحُسْــنِ منــهُ ... وَعَيْنــي قَــدْ تَضَــمَّنَها غَــديرُ
ولــو نَصَــبوا رَحــى بــإِزاءِ دَمعــي ... لَكَانَــتْ مِــنْ تَحَــدُّرِهِ تــدورُ

والمتنبي يشكو الهجر والصدود، ويصور أثرهما في نفسه وفي جسده، فيقول:(٢)

هَــذِهِ مُهجَتــي لَــدَيكِ لِحينــي ... فَاِنقُصــي مِـن عَـذابِها أَو فَزيـدي
كُــلُّ شَــيءٍ مِــنَ الــدِماءِ حَــرامٌ ... شُــربُهُ مــا خَــلا دَمَ العُنقــودِ
فَاِســقِنيها فِــدىً لِعَينَيــكِ نَفســي ... مِــن غَــزالٍ وَطــارِفي وَتَليــدي
شَــيبُ رَأسِــي وَذِلَّتــي وَنُحــولي ... وَدُمــوعي عَلــى هَــواكَ شُــهودي
أَيَّ يَــومٍ سَــرَرتَني بِوِصــالٍ ... لَــم تَرُعنــي ثَلاثَــةً بِصُــدودِ

وفي أخريات العصر العباسي يبرز البهاء زهير بغزله العفيف، وهو شاعر، برغم شهرته بمدح ملوك وأمراء الدولة الأيوبية، اشتهر بالغزل، حيث أوقف أكثر شعره عليه، ومعظم شعر الغزل عنده – إن لم يكن كله –

(١) ديوان الوأواء الدمشقي، جمع وتصحيح: أغناطيوس كراتشقوفسكي، مطبعة ليدن، ١٩١٣م، ص ٧١.

(٢) ديوان المتنبي، ج٢: ص٤٢،٤٣.

في الغزل العفيف .

ومن الغزل العفيف عنده قوله يصور خلف الوعد من حبيبه، وتأثره بذلك، ويطلب إلى محبوبه ألا يكون جافياً، وأن يصله، حتى تتوقف أقاويل الناس عنهما بسبب البعد والجفاء:(١)

يُعاهِدُني لا خانَني ثُمَّ يَنكُثُ ... وَأَحلِفُ لا كَلَّمتُهُ ثُمَّ أَحنَثُ

أَقولُ لَهُ صِلني يَقولُ نَعَم غَداً ... وَيَكسِرُ جَفناً هازِئاً بي وَيَعبَثُ

وَما ضَرَّ بَعضَ الناسِ لَو كانَ زارَنا ... وَكُنّا خَلَونا ساعَةً نَتَحَدَّثُ

أَمَولايَ إِنّي فيَ هَواكَ مُعَذَّبٌ ... وَحَتّامَ أَبقى في العَذابِ وَأَمكُثُ

أُعيذُكَ مِن هَذا الجَفاءِ الَّذي بَدا ... خَلائِقُكَ الحُسنى أَرَقُّ وَأَدمَثُ

تَرَدَّدَ ظَنُّ الناسِ فينا وَأَكثَروا ... أَقاويلَ مِنها ما يَطيبُ وَيَخبُثُ

ويناجي حبيبته البعيدة الغائبة عن نظره، ويبثها آلامه وأحزانه؛ لبعده عنها، ويؤكد لها تعلق قلبه بها، ويخبرها أنه يناجي الرياح الطيبة التي تأتي من جهتها، ويستخبرها عنها، وأنه – برغم بعدها – يذكرها دائمًا، فهي في قلبه:(٢)

يا أَيُّها الغائِبُ عَن ناظِري ... غَيرُكَ في بالِيَ لا يَخطُرُ

وَلي فُؤادٌ عَنكَ لا يَرعَوي ... وَلي لِسانٌ عَنكَ لا يَفتُرُ

وَكُلَّما هَبَّت شَمالِيَّةٌ ... أَسأَلُها عَنكَ وَأَستَخبِرُ

يا طيبَها ريحاً إِذا ما سَرَت ... وَطيبَ ما تَروي وَما تَذكُرُ

(١) ديوان البهاء زهير: ص ٥٢ .

(٢) السابق: ص ١١٥ .

أَفْهَـــمُ مِـــن طَيِّـــبِ أَنفاسِـــها عِبـــارَةً عَنـــكَ هِـــيَ العَنبَـــرُ

وهو دائمًا – على عادة العذريين – يشكو الجفاء، وفعل الواشين بينه وبين محبوبته، ومحاولتهم في التفريق بينهما، ويخشي أن تصدق وشايتهم، لكنه يستدرك أن خلقها يمنعها من ذلك، واستشهد بما فعله الواشون فيما مضي من الزمان، وإيقاعهم بين الناس والمحبين، ويطلب إليها، إن كانت صدقت وشايتهم، أن تذكرها له؛ ليصحح الأقاويل ويبين براءته من ذلك، ويذكرها أن لهم يومًا يُحاسبون فيه علي ذلك، فينصحها ألا تستجيب لوشايتهم ولا تتأثر بها.

و كل ذلك في أسلوب سهل وواضح وصور قريبة مألوفة. يتضح ذلك كله في قوله:(١)،،

حَبيبِـيَ مـا هَـذا الجَفـاءُ الَّـذي أَرى وَأَيـنَ التَغاضـي بَينَنـا وَالتَعَطُّـفُ
لَقَـد نَقَـلَ الواشـونَ عَنِّـيَ بـاطِلاً وَمِلـتُ لِمـا قـالوا فَـزادوا وَأَسـرَفوا
كَأَنَّـكَ قَـد صَـدَّقتَ فِـيَّ حَـديثَهُم وَحاشاكَ مِن هَذا وَخُلقُكَ أَشرَفُ
وَقَد كانَ قَولُ الناسِ في الناسِ قَبلَنا فَفُنِّـدَ يَعقـوبٌ وَسُـرِّقَ يوسُـفُ
بِعَيشِكَ قُل لـي ما الَّذي قَد سَمَعتَهُ فَإِنَّـكَ تَـدري مـا تَقـولُ وَتُنصِـفُ
فَـإِن كـانَ قَـولاً صَـحَّ أَنِّـيَ قُلتُـهُ فَلِلقَـولِ تَأويـلٌ وَلِلقَـولِ مَصـرَف
وَهـا أَنـا وَالواشـي وَأَنـتَ جَميعُنـا يَكـونُ لَنـا يَـومٌ عَظـيمٌ وَمَوقِـفُ

هذا، والنظرة المتأنية في النماذج السابقة للغزل العذري العفيف، تؤكد أيضًا وضوحها، وقربها من الأفهام، والوقوف على مضامينها وغايات

(١) السابق: ص ١٦٨ .

أصحابها من ورائها بسهولة ويسر، حيث إن مفرداتها من النوع المألوف، القريب من الأفهام، ويمكن إدراك معانيها اللغوية، وما توحي به في سياق الأبيات بسهولة ويسر، وتراكيبها أيضًا من النوع السلس السهل، المتناسق، الذي وضع فيه كل شيء في موضعه المناسب، مما زاد من وضوح الأبيات، وقرب معانيها وأفكارها من الأذهان والأفهام، لا ينفي ذلك وجود بعض الألفاظ الغريبة، مثل: (التصابي- أطراب)، عند بشار ، (الكاشحين- الختل- إعوالي-غروب)، عند العباس بن الأحنف، (نثير)، عند الوأواء الدمشقي، (دم العنقود)، عند المتنبي، لكنها أيضًا مفردات يمكن للمتلقي الوقوف على المراد منها من سياق الأبيات، ومن العودة إلى المعاجم اللغوية، فوجودها لا يؤثر في الوضوح العام، الذي يتجلى في تلك الشواهد.

كما أن الصور فيها من النوع المألوف القريب، الذي يتردد في أغلب شعر الغزل، كما في (القلب كإنسان يعذب، والهوى يقلِّب)، وما فيهما من تشخيص للقلب والهوى، عند بشار، و (العبرة أو الدموع تمحو ما خطه العباس بن الأحنف في كتابه، وما في ذلك من تشخيص وتجسيد)، (ونفس عكاشة بن الصمد تتقطع من الحسرات والأحزان، والهوى قد رحم قلبه، وبكاء الثياب على جثمانه حزنًا ، عنده أيضًا، وما في ذلك من تشخيص بديع)، (والعبرات تنطق عند خالد بن يزيد الكاتب، وما توحي به من تشخيص بديع)، (ومطر السحاب بكاء، وللسحاب جفون، وللسحاب بكاء ودموع، عند ابن المعتز، وما في ذلك من تشخيص جميل مثير) و (تصوير المرأة بالبدر المنير، وحسنها بالرياض، عند الوأواء الدمشقي، وهو أيضًا تشخيص وتجسيد بديع)، و (الفؤاد لا يرعوي، واللسان لا يفتر، ومساءلة الريح الشمالية عن الحبيب، وطيب الريح وطيب ما تروي، وما توحي به الريح للشاعر من عبارات عن المحبوبة تشبه العنبر، عند البهاء زهير، وما

في ذلك كله من تشخيص جميل، وتجسيد بديع).

وكلها صور مألوفة قريبة، زادت من وضوح الأبيات، وقرب معانيها، ومراد الشعراء من ورائها إلى أذواق المتلقين، فلا يجد القارئ لها صعوبة في فهمها، وإدراك مراميها.

وهكذا نجد أن الغزل العفيف في العصر العباسي يتميز بالعفة، والاهتمام بالمعاني الروحية، والبعد عن الجوانب المادية، فالشاعر فيه يتميز بالوفاء والإخلاص للمحبوبة، والاقتصار على واحدة لا يتجاوزها إلى غيرها من النساء .

كما نجد أن هذا اللون من الغزل – الذي يمثل الهوى العذري، والصبابة المكتومة، وطول الحرمان – كان بمثابة صوت العقل وسط هذا الصخب من الغزل المادي الصريح، الذي أطلقه شعراء المجون، وإن كان في أغلبه لم يخرج عن إطار مثيله في العصور السابقة .

ثالثًا: الغزل القصصي :

وهو ذلك اللون الذي يصور فيه الشاعر مغامراته الغرامية، أو مغامرات غيره، ويكثر من سرد الحكايات والمطاردات الغرامية، وما يحدث بين الحبيبين، ولا يتعلق فيه الشاعر بامرأة واحدة، وإنما يهيم بربات الحسن والجمال .

وقد وجد هذا اللون بكثرة عند شعراء الجاهلية، كامرئ القيس والمنخل اليشكري وأضرابهما، كما وجد عند شعراء العصر الأموي، كعمر بن أبي ربيعة وأضرابه، فهو – إذًا – يعد في العصرين الأموي والعباسي لونًا من ألوان الغزل التقليدي.

«ويبدو أن تأثير القصص والأساطير والروايات التي ترجمت إلى اللغة

العربية في هذا العصر كان واضحًا في نزوع بعض الشعراء إلى الأسلوب القصصي في بعض الموضوعات ومنها الغزل».[١]

وأري أن الغزل القصصي قد لا يقتصر على سرد المغامرات بين الشاعر والمحبوبة، وما في تلك المغامرات من أحداث وأفعال، وسرد صفات حسية مادية، وإنما قد يستخدم الأسلوب القصصي أحيانًا في مجال الغزل العفيف؛ لتصوير مشاعر وأحاسيس المحبين، وتبادل أحاديث الهوى والعشق، والصد والمجر، وغير ذلك من مضامين الغزل العفيف في أسلوب قصصي قائم على السرد،وتبادل الحوار بين الشاعر والمحبوبة.

وفي الشواهد الآتية للغزل القصصي ما قد يدعم ذلك الرأي، وتلك الوجهة.

ومن هذا اللون ما نجده عند بشار يصف ما وقع بينه وبين إحدى الفتيات، ويصور آثار فتكه بها في جسدها، ويرسم بدقة حالتهما عند اللقاء، وما يدور بينهما من حديث، آنذاك بالتفصيل: تبادل الحديث، والنظر، القبلات، لمس جسدها، بريق ساقها، وما حدث بينهما وصوتها العالي، وحالها أثناء لمسها، وبكاؤها بسبب ذلك، ودعاؤها عليه، ومناجاتها لله؛ كي ينقذها منه، ومن فعله معها، مستغلًا انفراده بها، وغياب إخوتها.

وكل ذلك بأسلوب قصصي فاحش، واضح، يصور به ما حدث في اللقاء تصويرًا دقيقًا، فيقول:[٢]

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. هدارة: ص ٥٥٣ .

(٢) ديوان بشار، ج٣، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور– طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة– ١٩٥٧م، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

حَسبي وَحَسبُ الَّتي كَلِفتُ بِها ... مِنّي وَمِنها الحَديثُ وَالنَظَرُ
أَو قُبلَةٌ في خِلالِ ذاكَ وَلا ... بَأسَ إِذا لَم تُحلَّلِ الأُزُرُ
أَو لَمسُ ما تَحتَ مِرطِها بِيَدي ... وَالبابُ قَد حالَ دونَهُ السُتُرُ
وَالساقُ بَرّاقَةٌ خَلاخِلُها ... وَالصَوتُ عالٍ فَقَد عَلا البُهُرُ
وَاِستَرخَت الكَفُّ لِلغَزالِ وَقا ... لَت أُلهُ عَنّي وَالدَمعُ مُنحَدِرُ
اِذهَب فَما أَنتَ كَالَّذي ذَكَروا ... أَنتَ وَرَبّي مُعارِكٌ أَشِرُ
وَغابَتِ اليَومَ عَنكَ حاضِنَتي ... فَاللَهُ لي اليَومَ مِنكَ مُنتَصِرُ
يا رَبِّ خُذ لي فَقَد تَرى ضُعفي ... مِن فاسِقِ الكَفِّ ما لَهُ شُكُرُ
أَهوى إِلى مِعضَدي فَرَضَّضَهُ ... ذو قُوةٍ ما يُطاقُ مُقتَدِرُ
يُلصِقُ بي لِحيَةً لَهُ خَشُنَت ... ذاتَ سَوادٍ كَأَنَّها الإِبَرُ
حَتّى اِقتَهَرني وَإِخوَتي غَيَبٌ ... وَيلي عَلَيهِم لَو أَنَّهُم حَضَروا

وإذا كان بشار قد صور هنا مغامرة ذاتية وقعت بينه وبين إحدى الفتيات، فإن عبد الصمد بن المعذل يسرد في أسلوب قصصي ما حدث بين امرأة شابة وفتى شاب عشقته، فيقول:(١)

أيَّ امرِيءٍ حازمٍ رَكبتْ ... أيَّ امرِيءٍ عاجز تَرَكتْ
فِتْنَة ابن الجوهري لقد ... أظهرتْ نصحًا وقد أفكتْ
أكذبتها عزمة ظهرت ... لا تبالي نفس من سفكتْ
ظفرت فيها بما هويتْ ... ونجت من قرب من فركتْ
ثم خدود بعدها لُطمتْ ... وجيوب بعدها هُتكتْ

(١) الأغاني، ج١٣: ص ٢٣٠ – ط دار الكتب .

وعيـــــون لا يرقـــــأن علـــــى حســـن وجـــه فـــاتهن بكـــتْ
خرجـــــت والليـــــل معتكـــــر لـــم يهلهـــا أيـــةً ســـلكتْ
وعيـــون النـــاس قـــد هجعـــت ودُجَـــى الظلمـــاء قـــد حَلَكَـــتْ
لـــم تخـــفْ وجـــدًا بعاشـــقها حرمـــةَ الشـــهر الـــذي انتهكـــتْ

فعبد الصمد بن المعذل في هذه الأبيات يروي قصة امرأة شابة ملت زوجها الشيخ العاجز، واسمه ابن الجوهري، فهربت منه مع عشيقها الفتي ليلًا، دون مراعاة لحرمة الشهر الذي انتهكته بسبب هروبها وفعلتها مع عشيقها، وتركت لزوجها –بسبب ذلك– العار والحسرة.

وكل ذلك جاء في أسلوب قصصي يسرد الحدث بوقائعه، و يصورما وقع فيه بين المرأة والفتى، وزمنه، وشخصياته.

والشاعر في الغزل القصصي بغيته الملاحة والصباحة، وغايته المتعة البريئة، واللذة المنتشية، لدى أي امرأة يراها وتفتنه لمحاتها، وتصبيه مشيتها وخفتها ودلالها وطلاوتها، وقد تجاوز بعضهم فافتخر بكثرة معشوقاته، وتعدد من يتعلقن بحبه، ويتوددن إليه.

فهذا ربيعة الرقي يصور غرام النساء به، ومحاولتهن التقرب إليه، فيقول:(١)

ســـائِلي عَـــن شُـــعَراءِ النـــاسِ هَـــل غاصـــوا مَغاصـــي
قُلـــتُ شِـــعراً يُنـــزِلُ الأَعـــ ـــصَمَ مِـــن رَأسِ الصِياصـــي

(١) شعر ربيعة الرقي د. يوسف حسين بكار: ص ٨٠–دار الرشيد للنشر–العراق–١٩٨٠م.

وَالغَـــــــواني مُغوِيـــــــاتٌ مولَعـــــــاتٌ بِإقتِناصـــــــي

قَـــــد تَواصَـــــين بِحُبّـــــي حَبَّـــــذا ذاكَ التَواصـــــي

ويصور ربيعة إحدى مغامراته مع فتاة ذات لهو ومزاح، ذهب إليها في أثناء الليل، وخلا بها، وظل معها حتي صاح ديك الصباح، لكنه لم يستجب لصياح الديك، وأصر على عدم الخروج حتي يأتي الصباح، بالرغم من إدراكه أنه سيُفضح أمره في الصباح، حيث سيراه الناس عند خروجه.

فهو هنا يقص علينا هذا الحدث بشيء من التفصيل ، وما قام به مع الفتاة، مشيرًا إلى مكانه وزمنه وشخصياته، وحاله مع الفتاة، وكل ذلك بأسلوب قصصي واضح، فيقول:(١)

وَفَتـــــــاةٌ غَيـــــــرُ داحٍ ذاتُ لَهـــــــوٍ وَمُـــــــزاحِ

قَـــــد تَجَشَّـــــمتُ إِلَيهـــــا هَـــــولَ لَيـــــلِ وَنُبـــــاحِ

فَخَلّونـــــــــا بِفَتـــــــــاةٍ غـــــادَةٍ غَرثـــــى الوَشـــــاحِ

فَلَبِســـــتُ العُكَـــــنَ البيـــــ ـــضَ مِـــنَ الخَـــودِ الـــرَداحِ

ثُـــمَّ لَمّـــا صـــاحَ ديـــكٌ قَبـــلَ إِبّـــانِ الصَـــباحِ

قُلـــتُ صِـــح ياديـــكُ أَلفـــاً لَـــيسَ ذا وَقـــتَ البَـــراحِ

أَو أَرى الصُـــــبحَ وَإِن كـــــا نَ لَفـــي الصُـــبحِ اِفتِضـــاحي

ويستمر هذا اللون موجودًا في شعر الغزل العباسي على مدار العصر كله من بدايته إلى نهايته، فإذا وصلنا إلى أخريات العصر العباسي، وجدنا هذا اللون شاخصاً في بعض نماذج من غزل شرف الدين بن الرفاء، حيث

(١) السابق ص: ٦٩ ، ٧٠ .

نجده في إحدى قصائده المدحية «يحدثنا عن جارته ربة الخالين التي حوت حسن البداوة وجمال الحضارة، وذلك في مطلع نسيب مدحة مظفرية أنشده إياها وهما راكبان في الموكب الملكي:

لَنـــا مِـــنْ ربَّـــةِ الخـــالين جَـــارَهْ ... تواصِـــلُ تـــارةً وتَصـــدُّ تـــارَهْ
تُؤانِسُـــني وتَنْفِـــرُ مـــن قريـــبٍ ... وتُعـرِضُ ثـمَّ تُقْبِـلُ فـي الحـرارَهْ
وتُلْعِقُنـــي بمـــا يُحْلـــي سُـــلوّي ... ولكِـنْ لـيسَ فـي جَـوفي مَـرَارَهْ
ومَـالي فـي الغـرامِ بهـا شـبيهُ ... وَلـيسَ لهـا نظيـرٌ فـي النَّضَـارَهْ
وَفـي الوَصـفَينِ مِـنْ كَحَـلٍ وَكُحْـلٍ ... حَـوَتْ حسـنَ البَـداوةِ والحضـارَهْ
وَفـــي خَلْخَالِهـــا خَـــرَسٌ ولكـــنْ ... إذا أَوْمَـــأْتُ تَفْهَـــمُ بالإشـــارَهْ
وقتـــلُ العَمْـــدِ قـــد قَتَلَتْـــهُ عِلْمـــاً ... وَمـا وَصَـلَتْ إلـى بـابِ الإجـارَهْ
وَقـــالُوا قَـــدْ خَسِـــرتَ الـــروحُ فيهـــا ... فقلـتُ الـرِّبحُ فـي تلـكَ الخسـارَهْ
بأَيســـر نظـــرةٍ أَســـرَتْ فـــؤادي ... كمـا نَشَـأَ اللَّهيـبُ مِـنَ الشَّـرَارَهْ
أَطـارَتْ شـملَ حُسـنِ الصـبرِ عنّـي ... بأَحسـنِ شَـمْلةٍ مِـنْ فـوقِ طَـارَهْ
وقُلْـتُ لَهـا قِفـي إنْ لـم تَـزُوري ... فقالـــتْ والوُقُـــوفُ مِـــنَ الزِّيـــارَهْ
شَـــمَرْتُ إزَارَهَـــا عنهـــا فَصَـــدَّتْ ... فقلـتُ تقـدَّمي ودَعـــي الشَّـمَارَهْ
أَدَرْتُ علـــى مُزرَّرِهـــا عِنـــاقي ... فبِـــتُّ ومِعصَـــمي للبـــدرِ دارَهْ
إذا استَسْـــقَى بريقتِهـــا نـــديمٌ ... أَزالـــتْ خَمرُهَـــا عنـــهُ خُمـــارَهْ

نرى في المدحة المذكورة هذا المطلع الغزلي الرقيق، فهو يحاول أن ينسج خيوط قصته مع جارته الحسناء، وحالها في الوصال والصد، والمؤانسة والنفور، ويسرد في قصته ملامح الحسن والجمال في جارته، التي جمعت بين حسن الحضارة والبداوة، وأنها قد أسرته بنظراتها، وأفقدته الصبر

على بُعدها، فطلب إليها أن تتوقف إن لم تزره، فأبت الوقوف، فشمَّر إزارها عنها فصدته، فأدار عناقه عليها، وأحاطها بمعصمه، وريقها يشبه الخمر، حيث يؤثر فيمن يذوقه، وكأنه يسرد هنا ما دار بينه وبين جارته، وما يتطلع إليه معها، في غزل قصصي، قل أن يجاريه فيه شعراء الغزل المشهورون، إذ نلاحظ أنه ينحو فيه منحى ماديًا محضًا بأسلوبه الرشيق الشيق، بما فيه من انسجام بديعي وتورية جميلة .

تلك هي قصة جارته المتخيلة في معرض النسيب، بيد أن للشاعر قصة في قصيدتين، وكانت النهاية فاجعة أليمة في حياة الشاعر، لم يفطن أحد لها ممن عاصره، لكننا قرأنا قصتها في تضاعيف شعره : أما القصيدة الأولى فقد روى لنا قصة الجارية الحسناء التي عشقها، وتعلق بها، وهام بها وجدًا، وهي آمرة وناهية له، وإذا حُرِم من رؤيتها وزيارتها، يصبح كأنه بيت بلا قافية، وهي إذا واصلته يحوز المني، وإذا نأت عنه يصبح وحيدًا متحسرًا، وهو في كل ذلك لا يبالي بالعذول وصنيعه، طالما أنها راضية عنه، وهو يشكو لها الجوي دائمًا، ويتأثر بذلك، ويتطلع إلي زيارتها ووصلها، وكل ذلك في أسلوب قصصي بديع صور به ذلك كله، فقال:

سُـــروري بسَـــاقيةٍ جاريـــهْ ... ووَجْـــدي بِجَاريـــةٍ ســـاقِيَهْ
أَهُـزُّ بهاتيـكَ عِطْـفَ القَـريضِ ... لِيُثْنـــى علـــى هـــذهِ الثانِيَـــهْ
مَهـــاةٌ نَشَـــأْتُ علـــى حُبِّهـــا ... كمـا هـي فـي حُسْـنِها ناشِـيهْ
سَـــبَتْني كاســـيةٌ بالجَمـــالِ ... فرُوحـــي عِنْـــدي لَهَـــا عارِيَـــهْ
علـــى الجِسْـمِ حاكمـــةٌ بالضَّـــنَى ... وفـــي القَلْـــبِ آمِـــرَةٌ ناهِيَـــهْ
تَرانـــي إذا لـــم أَزُرْ بيتَهـــا ... كـــأَنِّيَ بَيْـــتٌ بِـــلا قافِيَـــهْ
تُواصِـــلُني فـــأَحوزُ المُنَـــى ... وأَجلـسُ فـي الدَّسْـتِ والحاشِـيَهْ

وتَنْـــأَى فـــأَجْلِسُ فـــي مَسْـــجدي وَحيـــــداً وأَلْتَـــــفُّ بالبارِيَـــــهْ
ولَسْـــتُ أُبـــالي بسُـــخْطِ العَـــذولِ إذا أَنـــــا أَلفيتُهـــــا راضِـــــيَهْ
ولمّـــا شَـــكَوْتُ إليهـــا الجَـــوَى وعَتْـــــهُ لهـــــا أُذُنٌ واعِيَـــــهْ
فقالَـــتْ بِعينـــيَ هـــذا السَّـــقامُ فقُلْـــتُ علـــى عَينِـــكِ الواقِيَـــهْ
أَضـــاحكةَ السِّـــنِّ لـــو زُرْتِنـــي عَجِبْـــتِ لِمُقْلَتَـــي الباكِيَـــهْ
وأَنْقَـــذْتِني مِـــنْ أَسِـــيً زادَنـــي فلـــم يَبْـــقَ فـــي جَلَـــدي باقِيـــهْ
وإنّـــي وإنْ نـــالَ مِنّـــي الأَذَى مُعـــافىً إذا كُنْـــتِ فـــي عافِيَـــهْ

نبضات جديدة من الغزل الرقيق سكب الشاعر فيه قلبه وروحه، فابتعد عن التقليد الذي عرفناه في غزل هذا العصر، ونلاحظ أن الشاعر كان يعاني تجربة حقيقية لجاريته (مارية) التي كان يحبها كثيرًا ، أما نهاية هذه القصة فقد اختتمت بغرقها في نهر العاصي . (١)

كما نجد هذا اللون الغزلي القصصي شاخصًا أيضًا في بعض نماذج من غزل البهاء زهير، كما في أبيات له يصور فيها إحدى مغامراته مع زائرة زارته ليلًا بعد أن نام الناس، واختفى ضوء القمر، حيث كان يترقب زيارتها في شوق، فلما جاءته قالت:حبيبي، فقال لها: أهلا ومرحبا، وقبل أقدامها، واستمتع بليلة معها لم ير مثلها، حيث وفت المحبوبة بوعدها، وزارته، ولذلك فهو عاشق لها، وهائم بها حيث أنقذت عينه من الدموع، وخلصت قلبه من العذاب، ولهذا كله، فليس غريبًا أن يشكر إحسانها بالزيارة له، التي جاءت

(١) الأدب في بلاد الشام: د. عمر موسي باشا، المكتبة العباسية–دمشق–الطبعة الثانية–١٣٩١–١٩٧٢م، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ بتصرف.

بعد نوم الناس، وغياب ضوء القمر. فيقول في أسلوب قصصي مشوق :(١)

وَزائِـــرَةٍ زارَت وَقَـــد هَجَـــمَ الـــدُجى ... وَكُنـــتُ لِميعـــادٍ لَهـــا مُتَرَقِّبـــا
فَمـــا راعَنـــي إِلّا رَخـــيمُ كَلامِهـــا ... تَقـولُ حَبيبـي قُلـتُ أَهـلاً وَمَرحَبـا
فَقَبَّلـــتُ أَقـــداماً لِغَيـــرِيَ مـــا مَشَـــت ... وَوَجهـاً مَصـوناً عَـن سِـوايَ مُحَجَّبـا
وَلَـم تَـرَ عَينـي لَيلَـةً مِثـلَ لَيلَتـي ... فَيـا سَـهَري فيهـا لَقَـد كُنـتَ طَيِّبـا
حَبيـبٌ لِأَجلـي قَـد تَعَنّـى وَزارَنـي ... وَمـا قيمَتـي حَتّـى مَشـى وَتَعَـذَّبا
وَفـى لـي بِوَعـدٍ مِثلُـهُ مَـن وَفـى بِـهِ ... وَمِثلِـيَ فيـهِ عاشِـقٌ هـامَ أَو صَـبا
فَأَنقَـذَ عَينـاً فـي الـدُموعِ غَريقَـةً ... وَخَلَّـــصَ قَلبـــاً بِالجَفـــاءِ مُعَـــذَّبا
سَأَشكُرُ كُـلَّ الشُكرِ إِحسـانَ مُحسِـنٍ ... تَحَيَّـــلَ حَتّـــى زارَنـــي وَتَسَـــبَّبا
وَمـا زارَنـي حَتّـى رَأى النـاسَ نُوَّمـاً ... وَراقَـبَ ضَـوءَ البَـدرِ حَتّـى تَغَيَّبـا

وكما في قوله يصور مغامرة أخرى له مع صاحبة له، قضى معها ليلة سعيدة، تستدعي الحديث عنها، وتصوير ما حدث فيها، حيث نَعِمَ فيها بشمس الضحى وبدر الدُّجى، وقضاها في الهوى مع صاحبته، التي تستحق الشكر، حتي إن عظمت بعدها حسرته بسبب فراقها بعد تلك الليلة الجميلة التي قضاها معها :(٢)

وَلـــي لَيلَـــةٌ طَرَقَـــت بِالسُـــعودِ ... فَحَـدِّث بِمـا شِـئتَ عَـن لَيلَتـي
فَمـا كـانَ أَحسَـنَ مِـن مَجلِسـي ... وَمـا كـانَ أَرفَـعَ مِـن هِمَّتـي
بِشَـمسِ الضُـحى وَبِبَـدرِ الـدُجى ... عَلـى يَمنَتـي وَعَلـى يَسـرَتي

(١) ديوان البهاء زهير: ص٣٧،٣٨
(٢) السابق: ص ٤٦ .

فَقَضَّـــيتُها فـــي الهَـــوى لَيلَـــةً إِخـــالُ الخَليفَـــةَ فـــي خِـــدمَتي
سَأَشـــكُرُها أَبَـــداً مـــا بَقيـــتُ وَإِن عَظُمَـــت بَعـــدَها حَســـرَتي

هذا، والنماذج السابقة للغزل القصصي تتسم أيضًا بالوضوح، والقرب من الأفهام، والوقوف بسهولة علي السمات القصصية فيها، وإدراك طبيعة الأسلوب القصصي الذي استخدمه الشعراء فيها، فمفرداتها من النوع الواضح المألوف، وتراكيبها سلسة سهلة متناسقة، مما ساعد علي وضوح معانيها وأفكارها، بالرغم مما فيها من بعض المفردات الغريبة، مثل: (الأُزُرُ- مِرطِها- خَلاخِلُها- البُهُرُ- رضَّضّه-) عند بشار، (فركت- يرقأن- معتكر) عند عبد الصمد بن المعذل، (الصياصي-غرثى-العكن- الخود الرداح) عند ربيعة الرقي، (الخالين-تلعقني- خرس- إزارها-مُزرَّرِها- الدست-البارية)عند شرف الدين بن الرفاء.

لكنها مفردات يسهل الوقوف علي معانيها أيضًا من سياق الأبيات، ومن العودة إلي المعاجم اللغوية، ولهذا لم يؤثر وجودها في وضوح المعاني وقربها من الأذهان.

إضافة إلي أن الصور الفنية في تلك الأبيات من النوع القريب المألوف في فن الغزل، الذي لا يستعصي إدراك دلالاته وإيحاءاته ومراد الشعراء منه علي الأفهام والأذهان، ومن تلك الصور: الكناية في(لمس تحت مِرطِها)- (بريق الساق ولمعانها)-(المرأة غزال)-(وخشونة اللحية كأنها إبرة) عند بشار، وما فيها من تجسيد وتشخيص مثير، وتصوير المرأة بالبدر، وريقها بالخمرة، وتصوير المرأة بالمهاة، وتقديم روح الشاعر عارية لها، وتصوير الأذن بالواعية تعي الشكوى، وتصوير نحول الشاعر وضعفه من أثر الهجر والفراق، عند شرف الدين بن الرفاء، وتصوير الفتاة بغادة غرثى الوشاح،

وتصوير صياح الديك يؤذن بالصباح، عند ربيعة الرقي، وتصوير الدُّجى بإنسان يهجم، وهبوب الصبا كإنسان يهب، وإنقاذ المحبوبة عين المحب من الإغراق في الدموع، وتخليصها القلب من العذاب، وليلة طرقت باب الشاعر بالسعادة، وتصوير المحبوبة بشمس الضحى وبدر الدجى، والمبالغة في تصوير الحسرة بأنها قد عظمت، عند البهاء زهير، وما في تلك الصور من تشخيص وتجسيد يقربان المعاني والمراد من الأذهان، ويكشفان بوضوح عن غايات الشعراء.

كل ذلك أسهم في وضوح شواهد الغزل القصصي شكلًا ومضمونًا، وإدراك مراد أصحابها، وغاياتهم من ورائها، دون عناء، ودون تأمل طويل.

رابعًا: غزل المقدمات الشعرية:

وهذا اللون يكثر وجوده في فني المديح والفخر، ويوجد بندرة في فنون أخرى، وهو لون تقليدي بحت، وقد عرفنا أن بعض الشعراء العباسيين، وفي مقدمتهم أبو نواس، قد ثاروا على المقدمات الطللية الغزلية، واستبدلوها بمقدمات أخرى، ولكن ذلك لم يمنع من تغلغل هذه المقدمات في الشعر العباسي، وأن كثيرين من الشعراء تمسكوا بها في أشعارهم، حتى من ثاروا عليها تمسكوا بها أيضًا في بعض قصائدهم، تمسكًا منهم بتقاليد الشعر القديم في هذا العصر، الذي اشتد فيه الصراع بين القديم والجديد.

وينبغي أن نشير إلى أن هذا اللون من الغزل منه ما هو مادي صريح، ومنه ما هو عفيف، تبعًا لطبيعة الشاعر، وقيمه الأخلاقية، وطبيعة الموقف في المدح أو الفخر، واستعداد الممدوح لتقبل هذا اللون أو ذاك .

وتجدر الإشارة أيضًا إلي أن هذا اللون من الغزل يغلب عليه البعد عن التجربة الحية الواقعية، والشعور الصادق، فهي عادة شعرية قديمة، وتقليد

فني متبع، حاول الشعراء في هذا العصر مجاراته والتمسك به في أشعارهم، خضوعًا لذوق علماء اللغة والنحو، الذين كانوا يتعصبون – في الغالب – للقديم، ونيل رضاهم عن شعرهم، حتى يجد طريقه إلى خزائن الخلفاء، وكذلك خضوعًا لمتطلبات الحياة، حيث كان الخلفاء– الذين يثيبون على المديح – متأثرين كذلك بذوق علماء اللغة والنحو في التعصب للقديم شكلًا ومضمونًا، ومنهجًا.

وكذلك أصبح أغلب هذا اللون من الغزل «مقدمات باردة لا تعبر تعبيرًا صادقًا عن لواعج الشاعر، وتباريح جوارحه، وذلك لعدم ارتباطها بواقعه النفسي، وتجاربه العاطفية.

ومن يمعن النظر في نماذج هذا اللون يلمس تقاربا بين المعاني جميعًا، هذا التقارب استلزمه توكؤ الشاعر على أساليب المتقدمين لإعجابه بها، فجاراهم وضرب على منوالهم» (١)

ومن هذا اللون ما نجده عند مروان بن أبي حفصة في مدحه للخليفة المهدي، حيث نراه يفتتح قصيدته بالغزل على عادة القدماء، فقد هيجته الذكرى، ففاض دمع العين، ولا يتوقف أبدًا؛ لأنه يتذكر أحبته دائمًا، ويحن إليهم، ولا يساعده الهوى علي ذلك، كما أن أحبته جاروا عليه، ثم يمعن في وصف الأحبة، فيرى أبصارها مقل المها، وأعناقها أدم الظباء، ويرى لأحاديثهن وقعًا جميلًا مؤثرًا كأنه الدر في المعاقد.

وهنا نلحظ أن الغزل الحسي قد غلب على مقدمة مروان، ولكنه غزل

(١) أعلام في العصر العباسي، د. حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع–الطبعة الأولي–بيروت–لبنان،١٤٠٥هـ ،١٩٨٥م، ص ١٩٦.

خال من الفحش والتهتك:[١]

أَعـادَكَ مِـن ذِكـرِ الأَحِبَّـةِ عائِـدُ ... أَجَـل وَاِسـتَخَفَّتك الرُسـومُ البَوائِـدُ

تَـذَكَّرتَ مَـن تَهـوى فَأَبكـاكَ ذِكـرُهُ ... فَلا الذِكرُ مَنسِيٌّ وَلا الدَمعُ جامِدُ

تَحِـنُّ وَيَـأبى أَن يُسـاعِدَكَ الهَـوى ... وَلَلمَوتُ خَيرٌ مِن هَوىً لا يُساعِدُ

أَلا طالَمـا أَنهَبـتَ دَمعَـكَ طائِعـاً ... وَجـارَت عَلَيـكَ الآنِسـاتُ النَواهِـدُ

تُـذَكِّرُنا أَبصـارُها مُقَـلَ المَهـا ... وَأَعناقَهـا أُدمُ الظِبـاءِ العَواقِـدُ

أَلا رُبَّمـا غَرَّتـكَ عِنـدَ خِطابِهـا ... وَجـادَت عَلَيـكَ الآنِسـاتُ الخَرائِـدُ

تَسـاقَطُ مِـنهُنَّ الأَحاديـثُ غَضَّـةً ... تَسـاقُطَ دُرٍّ أَسـلَمَتهُ المَعاقِـدُ

والبحتري يكثر من افتتاح قصائده بالمقدمات الغزلية، وغزله فيها «غزل مادي بعيد عن الميول العارمة والعواطف المضطربة، يرسم الشاعر معالمه ببصره لا ببصيرته، فتراه شبيها بأوصاف المتقدمين من حيث الواقعية وما توحيه من صدق التصوير ووضوحه وصراحته» .[٢]

ومن هذا اللون عند البحتري ما نجده في مقدمة إحدى قصائده التي دبجها في مدح المتوكل، والتي يصور فيها أنه لا يأبه بلوم العاذلين؛ لأن محبوبته على قدر كبير من الجمال، ثم يعتب عليها؛ لأنها حرمته من لقائها، والاستمتاع بالحديث معها، ويصور أثر ذلك في نفسه، فكبده محرقة، وعينه مؤرقة لا تنام، وقلبه مستهام ذهب به العشق، وكل ذلك؛ لأن دار المحبوبة أصبحت بعيدة، يصعب ارتيادها، ويتمني أن يبلغها أحد أو ركب سلامه لها؛ لتتأكد أنه يذكرها ولا ينساها، ولا ينسي ذكرياتهما، ثم يؤكد على

(١) شعر مروان بن أبي حفصة، د/ حسين عطوان، الطبعة الثالثة- دار المعارف، ص ٣٦ .
(٢) أعلام في العصر العباسي، د. حسين الحاج حسن: ص ١٩٦.

أنه برغم ابتعادها عنه، ظل محافظًا على عهدها وحبها وودها، ويزداد غرامًا بها.

وواضح أن هذه المقدمة يغلب عليها الغزل العفيف.

يقول البحتري: (١)

عَـذيري فيـكَ مِـن لاحٍ إذا مـا ... شَـكَوتُ الحُـبَّ حَرَّقَنـي مَلامـا
فَـلا وَأَبيـكِ مـا ضَـيَّعتُ حِلمـاً ... وَلا قارَفـتُ فـي حُبّيـكِ ذامـا
أُلامُ عَلـى هَـواكِ وَلَـيسَ عَـدلاً ... إِذا أَحبَبـتُ مِثلَـكِ أَن أُلامـا
لَقَـد حَرَّمـتِ مِـن وَصـلي حَـلالاً ... وَقَـد حَلَّلـتِ مِـن هَجـري حَرامـا
أَعيـدي فِـيَّ نَظـرَةَ مُسـتَثيبٍ ... تَـوَخّى الأَجـرَ أَو كَـرِهَ الأَثامـا
تَـرى كَبِـدًا مُحَرَّقـةً وَعَينـاً ... مُؤَرَّقَـةً وَقَلبـاً مُسـتَهاما
تَنـاءَت دارُ عَلـوَةَ بَعـدَ قُـربٍ ... فَهَـل رَكـبٌ يُبَلِّغُهـا السَـلاما
وَقَـد عَلِمَـت بِـأَنّي لَـم أُضَـيِّع ... لَهـا عَهـداً وَلَـم أُخفِـر ذِمامـا
لَـئِن أَضـحَت مَحَلَّتُنـا عِراقـاً ... مُشَـرِّقَةً وَحِلَّتَهـا شَـآما
فَلَـم أُحـدِث لَهـا إِلّا وِداداً ... وَلَـم أَزدَد بِهـا إِلّا غَرامـا

والمتنبي ذلك الشاعر الذي تخلص من تلك المقدمات، وكان يفضل الدخول في موضوعه مباشرة، نجده في بعض مدائحه يخرج على مذهبه، ويخالف منهجه، ويعود إلى محاكاة القدماء، فيفتتح بعض القصائد بمقدمات غزلية تقليدية.

(١) ديوان البحتري، ج٣، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ص ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ .

ومن هذه المقدمات تلك المقدمة التي افتتح بها إحدى مدائحه في سيف الدولة، وهو يشكو فيها من الهجر والفراق، بعد فراق أحبته، الذي أثر في قلبه وعقله، وتحول ديارهم إلى رسوم بالية، ويؤكد على تأثره الشديد بفراقهم، وأنه لم يعد يشعر بالنسيم الذي كان يشعر به في وجودهم، ثم ينتقل بعد ذلك إلي ذكر بعض صفات محبوبته، فهي فتانة العين، قتالة الهوى، روائحها الذكية تحول الشيخ شابًا، وهي تشبه الدُّر الذي قُلِّدَت به، وهي بدر قَلَّدَ الشهبا، ولذلك في فقد أثَّر جمالها فيه، فوق تأثره بالبعد عنها، وتشوقه إليها، فيقول: (١)

فَدَيناكَ مِن رَبعٍ وَإِن زِدتَنا كَربا ... فَإِنَّكَ كُنتَ الشَرقَ لِلشَمسِ وَالغَربا
وَكَيفَ عَرَفنا رَسمَ مَن لَم يَدَع لَنا ... فُؤاداً لِعِرفانِ الرُسومِ وَلا لُبّا
وَكَيفَ اِلتِذاذي بِالأَصائِلِ وَالضُحى ... إِذا لَم يَعُد ذاكَ النَسيمُ الَّذي هَبّا
ذَكَرتُ بِهِ وَصلاً كَأَن لَم أَفُز بِهِ ... وَعَيشاً كَأَنّي كُنتُ أَقطَعُهُ وَثبا
وَفَتّانَةَ العَينَينِ قَتّالَةَ الهَوى ... إِذا نَفَحَت شَيخاً رَوائِحُها شَبّا
لَها بَشَرُ الدُرِّ الَّذي قُلِّدَت بِهِ ... وَلَم أَرَ بَدراً قَبلَها قُلِّدَ الشُهبا
فَيا شَوقِ ما أَبقى وَيالي مِنَ النَوى ... وَيا دَمعِ ما أَجرى وَيا قَلبِ ما
لَقَد لَعِبَ البَينُ المُشِتُّ بِها وَبي ... وَزَوَّدَني في السَيرِ ما زَوَّدَ الضِبّا

ومن مقدمات المتنبي الغزلية تلك المقدمة التي جاءت في افتتاح إحدى مدائحه في كافور الإخشيدي، وفيها يوازن بين جمال الحضريات، وجمال البدويات، ويفضل جمال البدويات؛ لأنه جمال طبيعي لا تكلف فيه ولا تطرية، ويؤكد ذلك فيتساءل: أين المعيز من الآرام في الحسن والجمال

(١) ديوان المتنبي، ج٢:ص١٨٢:١٨٥.

والطيب، ويؤكد ميله إلى جمال البدويات، فهن لم يعرفن مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجب، ومن هوي هؤلاء البدويات، تركت لون مشيبي غير مخضوب، ومن هوي الصدق والواقع في القول والعادات رغب عن الشعر المكذوب في الرأس، يقول المتنبي:(١)

مَـنِ الجَـآذِرُ فـي زِيِّ الأَعاريـبِ ... حُمـرَ الحُلـى وَالمَطايـا وَالجَلابيـبِ
إِن كُنـتَ تَسـأَلُ شَـكّاً فـي مَعارِفِهـا ... فَمَـن بَـلاكَ بِتَسـهيدٍ وَتَعـذيبِ
مـا أَوجُـهُ الحَضَـرِ المُستَحسَـناتُ بِـهِ ... كَأَوجُـهِ البَـدَوِيّاتِ الرَعابيـبِ
حُسـنُ الحَضـارَةِ مَجلـوبٌ بِتَطرِيَـةٍ ... وَفـي البَـداوَةِ حُسـنٌ غَيـرُ مَجلـوبِ
أَيـنَ المَعيـزُ مِـنَ الآرامِ نـاظِرَةً ... وَغَيـرَ نـاظِرَةٍ فـي الحُسـنِ وَالطيـبِ
أَفـدي ظِبـاءَ فَـلاةٍ مـا عَرَفنَ بِهـا ... مَضـغَ الكَـلامِ وَلا صَـبغَ الحَواجيـبِ
وَمِـن هَـوى كُـلِّ مَـن لَيسَـت مُمَوَّهَـةً ... تَرَكتُ لَونَ مَشيبي غَيرَ مَخضوبِ
وَمِن هَوى الصِدقِ في قَولي وَعادَتِهِ ... رَغِبتُ عَن شَعَرٍ في الرَأسِ مَكذوبِ

والبهاء زهير، شاعر الأيوبيين، اعتاد أيضًا – كالقدماء وسابقيه في عصره – أن يفتتح أغلب مدائحه بالغزل التقليدي، ومنها المقدمة التي جاءت في افتتاح مدحه لعلاء الدين على بن الأمير شجاع الدين جلدك التقوى، وفيها يجمع بين الغزل الحسي بوصف محاسن المحبوب، من القوام المهفهف الممشوق، والغصن الرطيب، الذي تعلق به، وهي تشبه الظبي جمالًا ورشاقًة، ويناديها بأن تلتفت إليه، وتعطف عليه، لينتقل بذلك إلى الغزل العفيف حين يطلب الوصال من محبوبه، ويشكو الهجر والفراق.

ويؤكد أن غرامه بها قد زاد برغم بعدها، ويطلب إليها أن تعطف عليه،

(١) السابق: ص ٢٨٨-٢٩٣.

فقد طال عذابه في هواها، ويؤكد بالقسم أنه ما فارق محبوبته عن ملامة. يقول البهاء زهير:(١)

أَغُصــنَ النَقــا لَــولا القَــوامُ المُهَفهَــفُ ... لَمــا كــانَ يَهــواكَ المُعَنّــى المُــدنَّفُ

وَيــا غصــنُ لَــولا أَنَّ فيــكَ مَحاسِــناً ... حَكَينَ الَّذي أَهوى لَما كُنتَ توصَفُ

كَلِفــتُ بِغُصــنٍ وَهــوَ غُصــنٌ مُمَنطَــقٌ ... وَهِمــتُ بِظَبــيٍ وَهــوَ ظَبــيٌ مُشَــنَّفُ

فَيــا ظَبــيُ هَــلّا كــانَ فيــكَ التِفاتَــةٌ ... وَيــا غُصــنُ هَــلّا كــانَ فيــكَ تَعَطُّــفُ

وَيــا حَــرَمَ الحُســنِ الَّــذي هُــوَ آمِــنٌ ... وَأَلبابُنــــا مِــــن حَولِــــهِ تُتَخَطَّــــفُ

عَسى عَطفَةً لِلوَصلِ يا واوَ صُدغِهِ ... وحقــك إنّــي أَعــرِفُ الــواوَ تَعطِــفُ

أَأَحبابِنــــا أَمّــــا غَرامِــــيَ بَعــــدُكُم ... فَقَــد زادَ عَمّــا تَعرِفــونَ وَأَعــرِفُ

أَطَلــتُم عَــذابي فــي الهَــوى فَتَعَطَّفــوا ... عَلــى كَلِــفٍ فــي حُــبِّكُم يَتَكَلَّــفُ

وَوَاللَهِ مــا فــارَقتُكُم عَــن مَلامَــةٍ ... وَجُهــدي لَكُــم أَنّــي أَقــولُ وَأَحلِــفُ

ومن مقدماته الغزلية هذه المقدمة التي افتتح بها مديحه للملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وعشرين وستمائة، والتي تقوم على الغزل الحسي، الذي يصف فيه جمال محبوبته، وبعض مظاهرها الحسية الحسنة، من: القد الرشيق، والحسن المثير الموجود فيها، الذي أثر فيه، كما تقوم على الغزل العفيف، الذي يصور تعلقه بالمحبوبة، ويشكو من فعل العاذلين بينهما، ويتوجع لفراقها، ويتشوق إليها، ويتطلع إلى وصالها، ويأمل أن يعود قلبها إلي سابق عهده، القلب المحب له، والمشفق عليه، ويثير عواطفها ومشاعرها، فيشير إلى أن خدها متأثر بفراقنا، شامت فيها بسبب ذلك. يقول

(١) ديوان البهاء زهير: ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

البهاء زهير: [1]

وَعَــدَ الزِيــارَةَ طَرفُــهُ المُتَمَلِّــقُ ... وَيــلاء قَلبــي مِـن جُفـونٍ تَنطِـقُ
إِنّــي لَأَهـوى الحُسـنَ حَيـثُ وَجَدتُـهُ ... وَأَهــيمُ بِالقَــدِّ الرَشــيقِ وَأَعشَــقُ
وَبَلِيَّتــــي كَفَــــلٌ عَلَيــــهِ ذُؤابَــــةٌ ... مِثـلُ الكَثيـبِ عَلَيـهِ صِـلٌّ مُطـرِقُ
يـا عـاذِلي أَنـا مَـن سَـمِعتَ حَديثَـهُ ... فَعَســاكَ تَحنــو أَو لَعَلَّــكَ تَرفُــقُ
لَـو كُنـتَ مِنّـا حَيـثُ تَسمَعُ أَو تَـرى ... لَرَأَيـتَ ثَـوبَ الصَـبرِ كَيـفَ يُمَـزَّقُ
وَرَأَيــتَ أَلطَــفَ عاشِــقَينِ تَشــاكَيا ... وَعَجِبـتَ مِمَّـن لا يُحِـبُّ وَيَعشَـقُ
أَبَــداً أَزيــدُ مَــعَ الوِصــالِ تَلَهُّفــاً ... كَالعِقـدِ فـي جيـدِ المَليحَـةِ يَقلَـقُ
يــا قــاتِلي إِنّــي عَلَيــكَ لَمُشــفِقٌ ... يــا هــاجِري إِنّــي إِلَيــكَ لَشَــيِّقُ
فَعَــلامَ قَلبُــكَ لَــيسَ بِالقَلــبِ الَّــذي ... قَد كـانَ لِـيَ مِنـهُ المُحِـبُّ المُشفِقُ
وَأَظُــنُّ خَــدَّكَ شــامِتاً بِفِراقِنــا ... فَلَقَـد نَظَـرتُ إِلَيـهِ وَهـوَ مُخَلَّـقُ

هـذا، والنمـاذج السـابقة مـن المقـدمات الغزليـة، عنـد شـعراء العصـر العباسـي، تتسم بالوضـوح، وقـرب التنـاول، وسـهولة المأخـذ، ومـن السـهل الوقوف على مضامينها، ومراد شعرائها من ورائها، فمفرداتها وتراكيبها من المفردات والتراكيب المألوفة في فن الغزل، وتتردد فيه كثيرًا في كل عصر، وأصبحت مضامينها مألوفة ومعروفة أيضًا للقراء، ولا ينفي ذلك أيضًا وجود بعـض المفـردات الغريبـة، المتنـاثرة فـي تلـك النمـاذج، ومنها:(العواقـد – الخرائد–المعاقد) عند مروان بن أبـي حفصـة،(عذيري– مستثيب– مؤرَّقـة– أُخفِر)عند البحتري،(الأكوار–الجآذر– الجلابيب– الرعابيب)عند المتنبي

(١) السابق: ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

،(المدنف–ممنطق– مُشنَّف– المتملق– ذؤابة– الكثيب–صل مطرق– هجعة– مُخلَّق)عند البهاء زهير.

وهي أيضًا يسهُل الوقوف على معانيها والمراد بها من سياق المعاني العامة للأبيات، التي وردت فيها، إلي جانب العودة إلي المعاجم اللغوية للاستزادة حول معانيها ومضامينها.

وكذلك تفيض تلك النماذج الشعرية من غزل المقدمات الشعرية بالصور الفنية الواضحة والمألوفة، التي تتردد كثيرًا في فن الغزل، وأصبح لدي المتلقين دراية بجمالها وما تنطوي عليه من دلالات وإيحاءات، وما تقوم عليه من تشخيص وتجسيد، ومن تلك الصور: (ويأبي أن يساعدكِ الهوى– واستخفتك الرسوم البوائد –تصوير أبصار الأحبة بمقل المها–وأعناقها بأدم الظباء–وتشبيه الأحاديث بالدر) عند مروان بن أبي حفصة، (الحب يشكوه الشاعر، وما في ذلك من تشخيص–تناءت دار علوة بعد قرب– وكأنها إنسان يبعد–وطيف المحبوبة يلوم الشاعر ويعاتبه كأنه إنسان)عند البحتري،(نذم السحاب الغر–كأنه إنسان–تصوير المحبوبة بالنسيم الرقيق رقة ولطافة–والمحبوبة فتانة العينين قتالة الهوي، تصوير بديع لجمالها وحسنها وأثر سحر عينيها وجمالهما، وأثر هواها وحبها في نفس المحب، وروائح الحبيبة إذا نفحت شيخًا شبا، وما في ذلك من تشخيص بديع– والحبيبة كالبدر في الجمال–والبين لعب بالحبيب والمحبوبة كأنه إنسان) عند المتنبي، (والمحبوبة غصن نقا وقوامها مهفهف– ومخاطبة الغصن كإنسان– وخد المحبوبة كالورد في الاحمرار والأثر النفسي– وجفون المحبوبة تنطق وتثير– وقَدّ المحبوبة رشيق– وتصوير الصبر بثوب يلبسه الإنسان ويمزق– وتصوير الوصال الذي يريده الشاعر من المحبوبة بالعقد المتسق المتناسق في جيدها، كأنه يريد وصالًا متواصلًا متناسقًا لا ينقطع–ومواعدة طرف

الحبيبة بهجعة كأنه إنسان– والخد شامت في الحبيبين لفراقهما كأنه إنسان) عند البهاء زهير.

وكلها صور واضحة مألوفة تتردد كثيرًا في فن الغزل، وأصبحت إيحاءاتها ودلالاتها واضحة للمتلقي، وقريبة من ذهنه، كما أنها صور تنبض بالحياة، وبالحركة وتتسم بالحيوية والجمال والروعة، وقد أضفت أعلي النماذج الغزلية ظلالًا وإيحاءات جميلة مثيرة.

وذلك كله قد ساعد على وضوح النماذج المختارة هنا من غزل المقدمات الشعرية، وسهولة الوقوف على مضامينها، ومراد شعرائها من ورائها، وبالتالي إثارة المتلقين، والتأثير فيهم، وجذبهم إلى مطالعة تلك المقدمات الغزلية البديعة.

خامسًا: غزل الرسائل الغرامية:

ومن مظاهر التطور الواضحة في غزل العباسيين ما يتبدى في هذا الغزل المعروف بالرسائل الغرامية، أو نظم الشاعر غزله في محبوبته في صورة رسالة غرامية موجهة إليها.

وقد كان لهذا اللون من الغزل جذور في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة، حيث كان ينظم غزله في بعض الأحيان في صورة رسائل موجهة إلى محبوبته، ويتبدى ذلك كثيرا في تغزله في الثريا محبوبته، ومن ذلك قوله في إحدى رسائله إلى الثريا :[1]

كَتَبَتُ إِلَيكِ مِن بِلَدي كِتابَ مُوَلَّهٍ كَمِدِ
كَئيبٍ واكِفِ العَينَينِ بِالحَسَراتِ مُنفَرِدِ

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، مطبعة السعادة– القاهرة، ص ٦٠ .

يُؤَرِّقُـــــهُ لَهيـــــبُ الشَّـــــوقِ بَـــينَ السَـــحرِ وَالكَبِـــدِ
فَيُمسِـــــكُ قَلبُـــــهُ بَيَـــــدٍ وَيَمسَـــــحُ عَينَـــــهُ بِيَـــــدِ

فإذا كانت جذور هذا اللون عند عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي، فقد أخذه العباسيون عن عمر وتوسعوا فيه، وزادوا بما يناسب عصرهم المتطور اجتماعيًّا وحضاريًا وعمرانيًا وثقافيًا وعلميًا، وجددوا فيه وفي طرقه، حتى أنهم أخذوا يوجهون رسائلهم الغرامية على بعض الفاكهة كالتفاح.

وهذا بشار – على سبيل المثال – يكتب غزله أحيانًا في صورة رسائل غرامية، أخذت شكل الرسائل الغرامية الحقيقية، بما جعل هذا اللون – بصورته التي تبدى عليها عنده، وعند شعرائه في العصر العباسي – يبدو جديدًا لعمق التطور الذي أصابه.

فإذا كان عمر بن أبي ربيعة قد سبق بشارا «في كتابة تغزله في صورة رسالة غرامية، فإن طبيعة هذه الرسائل الغرامية أوضح عند بشار بما فيها من خطاب وتسليم، وأما بعد، وكل ما تتضمنه الرسائل الحقيقية، ولدينا من هذا النوع مقطعتان لبشار، يقول في إحداهما:

مِـــــنَ المَشـــــهورِ بِالحُـــــبِّ إِلـــــى قاسِـــــيَةِ القَلـــــبِ
سَـــــــلامُ اللهِ ذي العَـــــــرشِ عَلـــــى وَجهِـــــكِ يـــــا حِبّـــــي
فَأَمّـــــا بَعـــــدُ يـــــا قُـــــرَّ ةَ عَينـــــي وَمُنـــــى قَلبـــــي
وَيـــــا نَفســـــي الَّتـــــي تَسكُـــــ ـــــنُ بَـــــينَ الجَنـــــبِ وَالجَنـــــبِ
لَقَـــــد أَنكَـــــرتُ يـــــا عَبـــــدَ جَفـــــاءً مِنـــــكِ فـــــي الكُتـــــبِ»[1]

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. هدارة: ص٥٣٥.

فبشار في تلك الرسالة الغزلية البديعة، يعاتب محبوبته بأنها قاسية القلب، وبرغم ذلك فهو يحبها، ويتعلق بها، ويهيم بها وجدًا، ودفعه ذلك إلى إرسال تلك الرسالة الرقيقة لها، التي يفتتحها بالسلام، ويحيي به وجهها، ويصورها في رسالته بأنها قرة عينه ومُنى قلبه، ونفسه التي تسكن بين جنبيه، في محاولة لدغدغة مشاعرها، والتأثير فيها؛ لينتهي جفاؤها وقسوتها، اللَّذين يحاول نسيانهما وإنكارهما؛ تقربًا منها وتوددًا إليها.

ومن هذا اللون ما قاله البهاء زهير يبث حبيبته في رسالته لواعج الشوق:(١)

هَـــذا كِتـــابي وَهُـــوَ يُطـــ ـــلِعُكُم عَلـــى حـــالي وَضَـــرّي
فَتَـــأَمَّلوا فيـــهِ تَـــرَوا أَثَـــرَ الـــدُموعِ بِكُـــلِّ سَـــطرِ
مـــاءٌ تَـــدَفَّقَ مِـــن جُفـــو نـــي فَهـــوَ مِـــن نـــارٍ بِصَـــدري
كَـــالعودِ يوقَـــدُ بَعضُـــهُ وَالـــبَعضُ مِنـــهُ المـــاءُ يَجـــري

فالشاعر في رسالته يشكو حاله، ويصف ما آل إليه، وما أصابه من ضرر، دفعه إلى البكاء المتواصل، الذي يظهر أثره في رسالته، بسبب ما في صدره من نار وحرقة؛ لفراق محبوبته وهجرها له.

وفي رسالة أخرى يبث حبيبته كذلك لواعج الشوق، ويشكو البعاد، فيقول:(٢)

مـــا اِحتِيـــالي فـــي كِتـــابٍ ضـــاقَ عَمّـــا فـــي ضَـــميري
حِـــرتُ لا أَعـــرِفُ مـــا أَشـــ ـــرَحُ فيـــهِ مِـــن أُمـــوري

(١) ديوان البهاء زهير: ص ١٠٧ .
(٢) السابق ص ١١٧ ، ١١٨ .

كـــــادَ أَن يَحتَـــــرِقَ القُـــــر طـــاسُ مِـــن نـــارِ زَفيـــري
لَـــيسَ يَشـــفي مـــا بِقَلبـــي مِـــنكُمُ غَيـــرُ حُضـــورِ
إِنَّ خَطـــبَ البُعـــدِ عَـــنكُم لَـــيسَ بِالخَطـــبِ اليَســـيرِ

والشاعر هنا يشير إلى أن رسالته تضيق عن التعبير عما في نفسه من ألمٍ وشوق، وما يعانيه من أثر بعاد محبوبته، حتى كاد ورق رسالته يحترق من نار شوقه، لايطفئها إلا رؤية الحبيبة، وحضورها إليه،؛ لأن أثر البعد عنها وجرحه، ليس بالأمر الهيّن، الذي يمكن تحوله.

وللبهاء زهير مقطعات غزلية أخرى جاءت في صورة رسائل موجهة إليه من محبوبته، ومنها قوله:(١)

يـــا غائِبـــاً أَهـــدى مَحـــا سِـــنَهُ إِلَـــيَّ وَظَرفَـــهُ
وَرَدَ الكِتـــابُ مُضَـــمِّناً مـــا لَســـتُ أُحسِـــنُ وَصـــفَهُ
فَحَبـــا بِكُـــلِّ مَسَـــرَّةٍ قَلـــبَ المُحِـــبِّ وَطَرفَـــهُ
وَلَثَمـــتُ إِكرامـــاً لَـــهُ وَجـــهَ الرَســـولِ وَكَفَّـــهُ

فالشاعر هنا يشير إلى رسالة وصلته من محبوبته، تضمنت ما يشير إلى محاسنها وظُرفِها بين كلماتها، إلى الحد الذي لا يستطيع وصفه، فأثرت الرسالة بمضمونها في قلبه، وبعثت في نفسه سرورًا، فراح يقبِّل وجه الرسول وكفه؛ إكرامًا لتلك الرسالة البديعة المؤثرة.

(١) السابق ص ١٦٤ .

وقوله:[١]

كِتـابٌ أَتـاني مِـن حَبيـبٍ وَبَينَنـا ... لِطـولِ التَنـائي بَـرزَخٌ أَيُّ بَـرزَخِ
تَقَـدَّمَ لـي عَنـهُ مِـن البُعـدِ أُنسُـهُ ... وَفاحَ إِلَيَّ الطيبُ مِن رَأسِ فَرسَخِ
كَـأَنَّ نَسـيمَ الـرَوضِ عِنـدَ قُدومِـهِ ... سَرى بِقَمـيصٍ بِـالعَبيرِ المُضَـمَّخِ
لَقَـد بـانَ مِـن تاريخِـهِ فـي مسـرَّةٌ ... فَقُـل فـي كِتـابٍ بِالسُـرورِ مُـؤَرَّخِ

يشير الشاعر هنا إلى رسالة وصلته من محبوبته، البعيدة عنه من زمن، فشعر من خلال تلك الرسالة بأُنس تجاه الحبيبة، وبطيب رائحتها العطرة ، وأن نسيم الروض قد هب عليه بعبير مثير، وكأن الرسالة قد قربته من محبوبته، وكأنها مؤرخة بالسعاة والسرور، فجعلته يشعر بذلك بعد قدومها.

وقوله:[٢]

وَرَدَ الكِتـــــابُ وَإِنَّـــــهُ ... عِنـــــدي وَحَقِّكُـــــمُ كَـــــريمُ
وَفَضَضـــــتُهُ وَكَأَنَّـــــهُ ... مِـــــن حُســـــنِهِ دُرٌّ نَظـــــيمُ
حســـــنت مَعانيـــــهِ وَقَـــــد ... رَقَّـــــت كَمـــــا رَقَّ النَســـــيمُ
أَحبابَنـــــا إِنّـــــي عَلـــــى ... حُســـــنِ الوَفـــــاءِ لَكُـــــم مُقـــــيمُ
وَحَيـــــاتِكُم وُدّي لَكُـــــم ... هُـــــوَ ذَلِـــــكَ الـــــوُدُّ القَـــــديمُ
أَنـــا ذَلِـــكَ الصَـــبُّ الَّـــذي ... أَبَـــداً بِـــذِكرُكُمُ يَهـــيمُ
أهتَـــزُّ مِـــن طَـــرَبٍ لَكُـــم ... وَلَرُبَّمـــا طَـــرِبَ الحَكـــيمُ
فَعَلَـــيكُمُ مِنّـــي السَـــلا ... مُ فَـــوُدُّكُم عِنـــدي سَـــليمُ

(١) السابق ص ١٦٧ .
(٢) السابق ص ٢٣٠ .

الشاعر يؤكد هنا علي مكانة الرسالة التي وصلته عنده ، ومنزلتها في نفسه، وفرحه بها، وتعجل ففتحها، ففوجئ فيها بدر حسن منظوم يتمثل في كلامها وجماله، وفي معانيها الرقيقة، التي تشبه رقة النسيم، مما دفعه إلي حفاظه على عهد محبوبته، وحسن الوفاء لها، ومداومته على ودها والاستمرار عليه؛ لأنه صب يهيم بذكرها دائمًا، ويهتز طربًا لذكراها، وشوقًا إليها، ويختم بتوجيه السلام لها، ويؤكد على وده السليم تجاهها.

وزاد الشعراء العباسيون في هذا اللون، فاستخدموا بعض ألوان الفاكهة، لا سيما التفاح؛ ليكتبوا عليه رسائلهم الغرامية شعرا، أو يتبادلونه (معضوضا) دلالة على القبل بجانب ما كتب عليه من الغزل.

وهذه ظاهرة ابتدعها شعراء العصر العباسي، ولا أدل على ذلك من قول ابن المعتز يصور لنا كيف كان التفاح رسول المحبين، وكيف كان يتبادل التفاح مع محبوبته مكتوبًا عليه، أو (معضوضًا) دلالة على القبلة :[1]

تُفّاحَـــــةٌ مَعضوضَـــــةٌ كانَـــت رَســـولَ القُبَـــلِ
لَـــو كـــانَ فيهـــا وَجنَـــةٌ تَنَقَّبَـــــت بِالخَجَـــــلِ
تَناوَلَـــت كَفّـــي بِهـــا ناحِيَـــةً مِـــن أَمَلـــي
لَســـتُ أُرَجّـــي غَيـــرَ ذا يـــا لَيـــتَ هَـــذا دامَ لـــي

فالتفاحة عند الشاعر هنا رسول للقبل، ولا أَدل على ذلك من كونها جاءت إليه معضوضة، ويراها إنسانًا، حيث لو كان لها وجنة كالحبيبة لتنقبت بالخجل، ولشدة تأثيرها فيه، أحيت الأمل في نفسه، وبعثت في نفسه الروح، وهو لا يريد غير ذلك، ويتطلع إلى دوامه.

(١) ديوان ابن المعتز: ج١: ص ٤٠٤ .

ومن هذا اللون قول البهاء زهير يصور دور التفاحة في علاقته بمحبوبته :(١)

فَـــدَيتُ مَـــن أَرسَـــلَ تُفّاحَـــةً إِرســـالُها دَلَّ عَلـــى فِطنَتِـــه
وَقَصـــــدُهُ أَنّـــــي إِذا ذُقتُهـــــا تَشـــتَدُّ أَشـــواقي إِلـــى رُؤيَتِـــه
فَـــاللَونُ مِـــن خَدَّيـــهِ وَالطَعـــمُ مِـــن ريقَتِـــهِ وَالطيـــبُ مِـــن نَكهَتِـــه

لشدة تأثير التفاحة في نفس الشاعر، راح يقدم نفسه فداءً لمن أرسلتها، حيث دلت على فطنتها وذكائها، ويرى أنها قصدت من إرسالها، أنه حين يتذوقها يزداد شوقًا إلى رؤيتها، وحين أمسك بالتفاحة شعر أن لونها من خديّ المحبوبة، وطعمها بطعم ريقها العذب، ورائحتها من رائحة المحبوبة العطرة الذكية.

وقوله في تفاحة أرسلتها له محبوبته وكتبت عليها السلام له :(٢)

أَرسَـــلَت لـــي تُفّاحَـــةً نَقَشَـــتها مِـــن فُـــؤادٍ بِحُبِّهـــا مُســـتَهامِ
وَعَلَيهـــا كِتابَـــةٌ مِـــن عَبيـــرٍ يـا حَبيبـي مِنّـي عَلَيـكَ سَـلامي

إنها تفاحة منقوشة من فؤادٍ مستهام بحب الحبيبة، وتحمل كتابة من عبير مثير، وكلماتٍ بديعة تشير إلى سلام الحبيبة إليه.

ما أروع تلك الرسائل الغرامية، وما أجمل أساليبها ووسائلها ومعانيها، وما أقوى أثرها في نفس المتلقي، وما أدقها في التعبير من مشاعر وأحاسيس نفوس أصحابها، وما أصدقها في إيضاح وبيان صدق العاطفة عند من كتبوها، وما أدلها على أبرز ملامح التطور في شعر الغزل عند

(١) ديوان البهاء زهير: ص ٥١ .
(٢) السابق: ص٢٤٩.

العباسيين.

إنها رسائل صادقة، تعبر عن مشاعر صادقة، وتترجم أحاسيس فياضة صادقة، وتعكس عواطف نبيلة صادقة، وتصور مشاعر متأججة بنار الحب والشوق.

وهي رسائل لا تخرج عن إطار نماذج الغزل السابقة في الوضوح، وقرب التناول، وسهولة المأخذ، وإدراك مضامينها، وما توحي بها، وما تدل عليه بسهولة ويسر.

مفرداتها مألوفة، وتراكيبها متداولة في فن الغزل بشكل عام، وأساليبها سهلة واضحة متناسقة ومتسقة في مفرداتها وجملها وتراكيبها، ولغتها بديعة جميلة، وكل ذلك يساعد القارئ على سرعة فهمها، وإدراك معانيها، والوقوف على دلالاتها وإيحاءاتها، وزاد من وضوحها، وسهولة إدراك معانيها ومراد شعرائها، عدم وجود ألفاظ غريبة بين مفرداتها، قد تستعصي على الأفهام، وتجعل الوقوف على مضامينها صعبًا، يتطلب تأملًا طويلًا؛ للوصول إليها.

وزاد من وضوحها وجمالها أيضًا ما شاع فيها من صور مألوفة متداولة في فن الغزل بكثرة، ويدرك المتلقون إيحاءاتها ودلالاتها، ويحيطون بجمالها وروعتها، ووسائلها المختلفة.

ومن تلك الصور: (تصوير المحبوبة بأنها قرة العين، ومُنى القلب، وأنها تمثل نفس حبيبها، وأنها تسكن بين جنبيه) عند بشار، (الكتاب إنسان ينطق يُطلِع المحبوبة على حال المُحِب، ويوضح لها أثر دموعه في كل سطرٍ فيه، ودموع المحب ماء تدفَّق من عيونه، وانبعث من نار صدره، وكأنه إنسان يحيا ويتحرك- والكتاب أيضًا ضاق عن التعبير عما في نفس الشاعر – وكاد الكتاب يحترق من نار زفير الشاعر- وكل ذلك تصوير

للكتاب قائم على التشخيص والتجسيم- والكتاب ورد حاملًا ما لا يستطيع الشاعر وصفه، وكأنه أيضًا إنسان يتحرك ويمشي- فأضفى على قلب الشاعر المسرة والسعادة- أيضًا تشخيص بديع للكتاب- والكتاب أيضًا أتاه من حبيبٍ نقل إليه الأُنس والطيب من الحبيبة، تشخيص واضح- ونسيم الروض تجسد في قميصٍ بالعبير مضمخ، وهو كتاب مؤرخ بالسرور- وحين ورد إليه الكتاب كانت له عنده منزلة كريمة، تشخيص وتجسيد أيضًا للكتاب- والكتاب درٌ منظوم حسنت معانيه، ورقَّت كما رق النسيم، تجسيد بديع للكتاب) عند البهاء زهير في رسائله المُستشهَد بها هنا، (ثم ما في تجسيد التفاح وتشخيصه، وقيامه بدور الرسول المخلص بين المحبين ومحبوباتهم، وينقل المشاعر والأحاسيس والعواطف الصادقة بينهم، وكأنه رسول إنسان) عند ابن المعتز، والبهاء زهير.

وكلها صور حيوية جميلة، مؤثرة ومثيرة، قامت على التشخيص والتجسيد، وقدمت كثيرًا من الإيحاءات الدالة، والدلالات البعيدة الحيوية، وزادت من وضوح النماذج الغزلية في تلك الرسائل، إلى جانب وسائل الوضوح الأخرى التي أشرنا إليها.

سادسًا: الغزل بالمذكر:

إذا كانت ملامح التقليد في غزل العباسيين قد تبدت بصورة واضحة في الاتجاهات الأربعة الأولى، وإذا كانت ملامح التطور قد تبدت في الاتجاه الخامس الذي تضمن الحديث عن غزل الرسائل الغرامية، كما تبدت في تغير طبيعة المرأة المتغزل فيها، كما أشرنا في التوطئة، حيث تحدثنا فيها عن هذا الجانب في غزل العباسيين، فقد وجد ملمح من ملامح التجديد في غزل العباسيين، وتمثل ذلك بصورة واضحة في الغزل بالمذكر، الذي شاع في ذلك العصر، نتيجة تأثير بعض مظاهر الحضارة الجديدة ، وبعض

مظاهر الحياة الاجتماعية، وبعض مستجداتها المختلفة، والاختلاط بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى، وتأثر العرب ببعض مظاهر وسلوكيات ونظم الأمم الأخرى، وغير ذلك من المظاهر والأوضاع التي أحاطت ببعض الشعراء في ذلك العصر، وغيرت من سلوكياتهم، وسلوكيات من يتغزلون فيهم – نساءً وغلمانا – «وحب الجنس نفسه ينشأ مع الحضارات الإنسانية الكبرى أو عند ازدهار الحضارة، وما يصحبها من تقدم ورقي في الحياة الاجتماعية، بعد تلك الحياة البدوية، التي عاشها الناس في العصور السابقة، فنشأ هذا اللون من الغزل، تبعًا لنشوء ظاهرة حب الجنس والتعلق به في ظل الحضارة العباسية»[(١)]، وكذلك نتيجة حياة اللهو والمجون والعربدة التي عاش فيها بعض الشعراء والغلمان الذين يتغزلون بهم، وكذلك نتيجة الثراء الفاحش الذي نعم به بعض الشعراء من قِبَل الخلفاء والوزراء والولاة وغيرهم من الممدوحين، وأيضًا نتيجة لكثرة الغلمان في مجالس الشراب والغناء، وفي القصور وفي الخمارات والحانات والأديرة وغيرها، وكذلك نتيجة «وفرة الجواري في هذا العصر، وشيوع التهتك والخلاعة بينهن، وتيسر الحصول عليهن بأهون سبيل، كل ذلك دفع بعض الرجال إلى الزهد في المرأة، ومحاولة اقتناص اللذة من سبيل آخر يرضي شهواتهم، التي تؤججها مظاهر الترف، والفراغ، ووفرة الثراء في مجتمعهم».[(٢)]

وكذلك نتيجة «بروز العنصر الفارسي في العصر العباسي، وبخاصة عقيدة المانوية التي كان من مظاهرها السلوكية استخدام الرجل غلامًا أمرد

(١) نفسية أبي نواس، محمد النويهي، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة– ١٩٥٣م، ص ٨٨ ، ٨٩ بتصرف .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د. محمد مصطفى هدارة: ص ٥٤٦.

في قضاء شؤونه».[١]

وغير ذلك من بعض العوامل الأخرى الاجتماعية والحضارية والنفسية والاقتصادية والسلوكية، التي كان لها أكبر الأثر في وجود ذلك اللون من الغزل، وما تبعه من تهتك وفحش ومجون وعبث وانحلال في الأخلاقيات والسلوكيات، وانعكاس ذلك كله في نماذج ذلك اللون من الغزل.

«وسواء صحت تلك الأسباب كلها أو بعضها، وسواء كانت هي وراء وجود تلك الظاهرة أو غيرها من الأسباب، فإن الظاهرة قد وجدت وانتشرت، وشاعت في غزل العصر العباسي» .[٢]

ووجدت لها نماذج كثيرة في أشعار العباسيين على مدى العصر كله، وعند بعض شعرائه.

لكنا برغم ذلك لا نرضى عن هذا اللون من الغزل، ولا نحبذه ولا نشجع عليه؛ لمخالفته صريح الدين في كثير من قيمه وأحكامه وأصوله، وكنا نود عدم ظهور ذلك اللون من الغزل – بل وغيره مما فيه فحش وتهتك ومخالفة للدين وخروجه غلى الذوق العام الملتزم والمحافظ – في شعرنا العربي.

ولكن ماذا نقول؟ إنها بعض مظاهرالحضارة العباسية، وما ساد بعض جوانب الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من مظاهر اللهو والمجون والعبث، والتهتك والسلوكيات الفاسدة، والتحرر غير الملتزم، وغير ذلك مما

---

(١) الصراع بين الموالي والعرب د. محمد بديع شريف، دار الكتاب العربي– القاهرة– ١٩٥٤م، ص ٩٤ .

(٢) ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول، د. حبيب أبو جمعة، الطبعة الأولى، مكتب الإيمان للطباعة والنشر– المنصورة–الطبعة الأولي–١٤١١هـ ، ١٩٩٠م، ص١٩٥.

يندي له الجبين.

«ولا شك في أن هذا اللون من الغزل يعد انحرافًا بالغزل عن مساره الطبيعي الفطري، إلى ضرب من الشذوذ، أداهم إليه عكوفهم على الشراب، واختلاطهم بالغلمان الذين كانوا يديرون عليهم الكؤوس، فيعبثون بهم على مائدة الشراب، ويتغزلون في محاسنهم، ويخلعون عليهم كثيرًا من أوصاف الفتنة والحسن والإغراء، ويتناولون أمورًا أخرى نعف عن ذكرها، مما نعده ضربًا من الانحراف بالغزل عن مساره الطبيعي، وتشويهًا لحقيقته الجميلة.

وما ذلك إلا لأن أكثر الغزلين في العصر العباسي كانوا ينحدرون من أصلاب غير عربية، وكان بعضهم متهمًا في دينه وأخلاقه، فلم يردعهم دين عن الولوغ في حمأة الرذيلة، ولم يمنعهم خلق عن الولوج إلى مواخر اللهو والفساد».[١]

ولهذا كله رأيت أن أتجنب الإطناب والتفضيل في شرح النماذج الشعرية هنا، أو التعليق عليها، واكتفيت في ذلك بإشارات مقتضبة، بالنظر إلى أني أعد ذلك الاتجاه الغزلي مجرد تتميم لمعالم البحث وعناصره فقط.

«ويعد أبو نواس أبرز رواد هذا اللون من الغزل في الشعر العباسي، ولا شك في أن مجونه وعبثه اللذين اشتهر بهما، وشعوبيته الواضحة، وحقده على العرب، والنعيم والترف اللذين نعم بهما في ظل الأمين، وتردده على الحانات والخمارات والأديرة، كان لكل ذلك أثره القوي في شيوع هذا اللون من الغزل في شعره».[٢]

---

(١) السابق: ص ١٩٤ .

(٢) السابق: ص: ١٩٦ .

ومن غزل أبي نواس بالمذكر قوله في غلام اسمه (موسى) :[١]

مَرحَبــاً يــا سَــمِيَ مَــن كَلَّــمَ اللَــ ـــهُ وَأَدنـــى مَكانَـــهُ تَقريبـــا
وَشَــبيهُ الَّــذي تَلَبَّــثَ فــي السِجــ ـــنِ سِــنينًا وَكــانَ بَــرّاً نَجيبــا
وَاِبــنَ قــاري القُــرآنِ غَضّــاً كَمــا أُنــ ـــزِلَ قَــد سُــمتَ قَلبِــيَ التَعــذيبا
لَــكَ وَجــهٌ مَحاسِــنُ الخَلــقِ فيــهِ مــاثِلاتٌ تَــدعو إِلَيــهِ القُلوبــا
فَــإِذا مــا رَأَتــكَ عَــينٌ رَأَت ســا عَــةَ تَرنــو إِلَيــكَ حُســناً غَريبــا
يــا حَبيبــاً شَــكَوتُ مــا بــي إِلَيــهِ فَحَكــى حــينَ صَــدَّ ظَبيــاً رَبيبــا
وَتَثَنّـــى مُوَلِّيـــاً كَهِـــلالٍ فَــوقَ غُصــنٍ يَجُــرُّ دِعصــاً كَثيبــا
بِــأَبي أَنــتَ لــي شِــفاءٌ وَداءٌ وَطَبيــبٌ إِذا عَــدِمتُ الطَبيبــا

وأبو نواس هنا يجمع بين الغزل المادي المتمثل في وصف محاسن الغلام الجسدية، والغزل العفيف، الذي يشكو الصَّدّ والهجر، وعدم القدرة على البعد عن المتغزل فيه، إضافة إلى أنه قد تجاوز في الجمع بين اسم الغلام المتغزل فيه، ونبي الله موسى- عليه السلام-، وفي تشبيهه بنبي الله يوسف-عليه السلام- وذلك لا يجوز ولا يُقْبَل؛ لأنه تجاوز مرفوض في مثل تلك المواطن.

وللبحتري غزل بالمذكر، ومنه قوله في غلامه (نسيم)، الذي كان يحبه ويعشقه :[٢]

(١) ديوان أبي نواس، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان: ص ٣٤٦

(٢) ديوان البحتري، ج١، تحقيق: حسن كامل الصيرفي- الطبعة الثالثة-دار المعارف، ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ .

بِـأَبي أَنـتَ كَيـفَ أَخلَفـتَ وَعـدي ... وَتَثاقَلـتَ عَـن وَفـاءٍ بِعَهـدي
لَـم تَجِـد مِثـلَ مـا وَجَـدتُ وَمـا أَن ... صَـفتَ إِن لَـم تَجِـد مِثـلَ وَجـدي
رُبَّ يَـومٍ أَطَعـتُ فيـهِ لَـكَ الغَـ ... ـيَّ وَغَيّـي فـي حُسنِ وَجهِكَ رُشدي
سِـحرُ عَينَيـكَ قَهـوَتي وَثَنايـا ... كَ مِزاجـي وَوَردُ خَـدَّيكَ وِردي
لَيتَنـي قَـد حَلَلـتُ عِنـدَكَ فـي الحُـ ... ـبِّ مَحَـلّاً أَحَلَّـكَ الحُـبُّ عِنـدي
لا أَرَتنـي الأَيّـامُ فَقـدَكَ مـا عِشـ ... ـتُ وَلا عَرَّفَتـكَ مـا عِشـتُ فَقـدي
أَعظَـمُ الـرُزءِ أَن تُقَـدَّمَ قَبلـي ... وَمِـنَ الـرُزءِ أَن تُـؤَخَّرَ بَعـدي
حَـدا أَن تَكـونَ إِلفـاً لِغَيـري ... إِذ تَفَـرَّدتُ بِـالهَوى فيـكَ وَحـدي

«البحتري هنا يعاتب الغلام – وكأنه يعاتب محبوبة – على إخلافه موعده ، وعدم الوفاء معه، ويخبره بأن ذلك قد أثر في نفسه كثيرًا ، فأصابه بوجد شديد لم يشعر الغلام به، ولا أصابه مثله، ثم يأخذ البحتري في ترجمة مشاعره وأحاسيسه تجاه الغلام، ومنزلته في نفسه، فسحر عينيه قهوته، وثناياه مزاجه، وورد خديه، ورده المفضل ، ولهذا كله عشقه، وأحبه، وهام به، وتمنى أن يكون قد نزل في قلب الغلام ، كما نزل الغلام في قلبه عشقًا وحبًا وهيامًا، ويبلغ الهيام بالبحتري أشده، وتتجلى عواطفه الصادقة تجاه هذا الغلام، حين راح يتمنى ألا يفقد أحدهما الآخر، فتلك مصيبة كبرى إن حدثت، وإنما يكون فقدهما معًا، وفي هذا دليل قوي على ارتباط البحتري بغلامه، وشدة تعلقه به، وعدم رضاه عن أن يكون هذا الغلام لغيره، فهو يريد أن يتفرد به دائمًا.

ونلاحظ أن البحتري هنا قد شكا من خلف الوعد، وعدم الوفاء بالعهد، وتحدث عن منزلة الغلام من نفسه، وتعلقه الشديد به، وتمنيه أن يظلا دائمًا معًا، والبحتري بذلك قد عبر عن عواطفه ومشاعره تجاه الغلام، وكأنه يعبر

عنها تجاه محبوبة، دون أن يتردى إلى وصف مفاتن الجسد، أو التهتك والفحش مع الغلام .«[١]

ويمضي بنا الزمن في العصر العباسي، فتستمر موجة الغزل بالمذكر قوية، ويكثر الشعراء من ذلك اللون الغزلي في أشعارهم.

فهذا ابن منير الطرابلسي يتغزل بغلام جمع فيه لين الشام وظرف العراق ونطق الحجاز، فيقول:[٢]

مَن ركَّبَ البدرَ في صدْر الزُّدَيْنيّ ... ومَوَّه السِّحْرَ في حَدِّ اليَمَانيّ

وأنزل النَّيِّرَ الأعلى إلى فَلَكٍ ... مَدَارُهُ في القبَاءِ الخُسرُوانيّ

طَرْفٌ رَنا أَمْ قِرابٌ سُلَّ صارِمُهُ ... وأَغْيَدٌ مَاسَ أَمْ أَعْطَافُ خَطِّيّ

أذَلَّني بعدَ عزٍّ والهَوَى أَبَداً ... يستعبِدُ اللَّيْثَ للظَّبْيِ الكِنَاسيّ

أما وذائبِ مِسْكٍ من ذوائِبِهِ ... على أعالي القضيبِ الخَيْزُرانيّ

لو قيل للبدر مَن في الأرض تحسُدُهُ ... إذا تَجَلَّى لقال ابْنُ الفلانيّ

فلو بَصُرتَ به يصغي وأنشدهُ ... قلت النواسِيّ يَشجو قَلبَ عذريّ

هنا يكشف الشاعر عن بعض الأوصاف الحسية الجميلة، والصفات الجسدية المثيرة، التي اتسم بها الغلام، وأثارت الشاعر، وحركت مشاعره، وراح يشير إلى ذلك كله في أبياته، وكأنه يتغزل في امرأة حسناء مثيرة.

---

(١) ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول، د. حبيب أبو جمعة: ص ١٩٨ ، ١٩٩ بتصرف .

(٢) ديوان ابن منير الطرابلسي، جمع وتقديم د. عمر عبد السلام تدمري،ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٦: ص ١٧٨،١٧٩.

ويمضي بنا الزمن في العصر العباسي أيضاً ، فنجد البهاء زهير يتغزل في صبي اسمه (زيد)، فيقول :[١]

يـا زَيـدُ كَيـفَ نَسـيتَ عَمـرَكَ ... وَأَطَلـتَ بَعـدَ الوَصـلِ هَجـرَك
مَهـلاً فَمـا غـادَرتَ لـي ... جَلَـداً يُقاسـي مِنـكَ غَـدرَك
قَـد سَـرَّني هَـذا الَّـذي ... بـي مِـن ضَـنىً إِن كـانَ سَـرَّك
إِن كـانَ ذَلِـكَ عَـن رِضـا ... كَ وَقَـد عَلِمـتَ بِـهِ فَـأَمرَك
أَو كـانَ قَصـدُكَ فـي الهَـوى ... قَتلـي يُطيـلُ اللَهُ عُمـرَك
مَـولايَ مـا أَحـلاكَ فـي ... قَلـبِ المُحِبِّـك وَمـا أَمَـرَّك
تِـه كَيـفَ شِـئتَ مِـنَ الجَمـا ... لِ فَلَسـتُ أَجهَـلُ فيـهِ قَـدرَك

الغزل هنا عفيف يشكو الشاعر فيه الصدّ والهجر، ويكشف عن معاناته، وما أصابه بسبب ذلك، وعدم اهتمام الغلام به، إلى الحد الذي أثَّر فيه بشدة، وكاد يقتله، وبرغم ذلك فللغلام في قلبه مكانة عالية، وهو يقدر منزلته وقدره في الجمال، ولا يجهلهما.

ونماذج الغزل بالمذكر في أشعار العباسيين كثيرة إلى حد كبير، ولكن يكفي ما عرضناه منها هنا؛ للدلالة على وجود ذلك الاتجاه الغزلي في أشعارهم.

ونشير هنا إلى أمر هام وهو أننا نلاحظ أن التهتك والفحش والإباحية، وغيرها من السمات التي غلبت على الغزل بالمذكر في بداية العصر العباسي عند أبي نواس وأضرابه من المُجَّان، قد تلاشت – أو كادت – في

(١) ديوان البهاء زهير: ص ١٠٨ .

الغزل بالمذكر الذي نظمه الشعراء في أخريات العصر العباسي، كما تؤكد نماذج الغزل بالمذكر التي وردت في ديوان البهاء زهير، وأوردنا منها شاهدًا واحدًا منها هنا فقط ، حيث لا نلحظ فيها فحشًا ولا تهتكًا، ولعل السبب في ذلك أن موجة المجون واللهو والعبث التي كانت قوية ومتقدة في أوائل العصر العباسي، قد خفت حدتها إلى حد كبير في أخرياته، وأن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا اللون من الغزل في بداية العصر العباسي، من حضارة وتمدن واختلاط بالأمم الأخرى، وكثرة الغلمان ومجالس الشراب والغناء، وغير ذلك قد أصبحت من الأمور التي اعتادها الناس، ولم تعد تثير فيهم ما أثارته في مجتمع أوائل العصر العباسي.

أضف إلى ذلك ما عرف به بعض شعراء أواخر العصر العباسي من أخلاق حميدة، وصفات كريمة، وسيرة طيبة، وأن كثيرين منهم في غزله بالمذكر إنما نظمه على سبيل المداعبة، أو التندر، أو التقليد.

فصورة الغزل بالمذكر في أواخر العصر العباسي لا تعبر تمامًا عن الواقع كما كانت في بدايات العصر ، «إذ إنَّ الغزل المذكور – في أواخر العصر – لم يكن في معظم الأحيان إلا تقليدًا للمحدثين السابقين من الشعراء العباسيين، فغزل الشرف الأنصاري»[1] شيخ الشيوخ المعروف بجلالة

(١) من غزله بالمذكر تغزله في مغن رومي اسمه (موزون)، وقد أشار من خلاله إلى أسماء سور من القرآن الكريم بلغ عددها اثنتي عشرة سورة. ومن وجهة نظري القاصرة، أرى عدم الاستشهاد به هنا. انظر: الأدب في بلاد الشام: ص ٥١٦.
ومن غزله بالمذكر قوله :

ملَّكت رقي غلامًا به سلوت الغلامهْ
عاملت فيه عذولي بالكيد لا بالكرامهْ

انظر: الأدب في بلاد الشام: ص ٥١٦ .

قدره ورفعة منزلته، هو من باب العبث البريء، وهو ضرب من التصنع البديعي لإظهار الحذق، ذلك أن طبيعة الشعر العربي، ونظرية التقليد في الأخذ استدعت وجود مثل هذه الظاهرة واستمرارها في هذا العصر.

وصحيح أنه وجد شعراء ماجنون كابن منير الطرابلسي، وعرقلة الدمشقي، وابن دفتر خوان، وغيرهم، خرجوا عن الجادة المستقيمة في حياتهم، بيد أن معظمهم كانوا يسلكون هذا السبيل جريًا على سنة المحدثين والمولدين من الشعراء تقليدًا لا اعتقادًا».(١)

ونشير هنا كذلك إلى شيء ثان مهم، وهو تحرك الشعراء العباسيين في إطار الغزل بالمذكر، من خلال تحركهم في إطار الغزل بالمرأة، في الصفات والمعاني والأفكار والصور الدائرة في غزلهم، حتى لا نكاد نشعر بوجود فرق في طبيعة الغزل بالمذكر عن طبيعة الغزل بالمرأة في هذه الجوانب، سوى في طريقة الخطاب أو لغته أحيانًا قليلة. «فالشعراء قد نقلوا كل الأوصاف التي وصفوا بها المرأة إلى الغلمان، ولولا استخدامهم ضمير المذكر لما أمكن في بعض الأحيان معرفة نوع المتغزل فيه، فحين يقول أبو نواس مثلًا:

قُــل لِــذي الطَــرفِ الخَلــوبِ ... وَلِــذي الوَجــهِ الغَضــوبِ
وَلِمَــن يَثنــي إِلَيــهِ الــ ... ــحُسنُ أَعنــاقَ القُلــوبِ
يــا قَضــيبَ البــانِ يَهتَــز ... زُ عَلــى دِعــصِ كَثيــبِ
قَــد رَضــينا بِسَــلامٍ ... أَو كَــلامٍ مِــن قَريــبِ
فَبِــروحِ القُــدسِ عيســى ... وَبِتَعظــيمِ الصَــليبِ

(١) الأدب في بلاد الشام: ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

قِـــــف إذا جِئـــــتَ إلَينـــــا ثُـــمَّ سَـــلِّم يـــا حَبيبـــي

فهذه الصفات التي وصف بها الغلام هنا كلها من الصفات التقليدية للمرأة، الكثيرة التردد في الشعر منذ العصر الجاهلي.

فإذا تركنا هذه الصفات الحسية جانبًا طالعتنا لدى الشاعر نفسه مقطوعات غزلية يصف فيها هذه المرة ما يكون بين المحب ومحبوبه من علاقات معنوية .

فهو حين يقول مثلًا:

بِنَفسِـيَ مَـن أَمسَـيتُ طَـوعَ يَدَيـهِ أَبَنـتُ لَـهُ وُدّي فَهُنـتُ عَلَيـهِ
إذا جـاءَ ذَنباً لَم يَرُم مِنـهُ مَخلَصـاً وَإِن أَنـا أَذنَبـتُ اعتَـذَرتُ إِلَيـهِ
عُقوبَتُـهُ عِنـدي هِـيَ الصَـفحُ كُلَّمـا أَسـاءَ وَذَنبـي لا يُقـالُ لَدَيـهِ
وَإِنّـي وَإِن عَرَّضـتُ نَفسِـيَ لِلهَـوى كَمُبتَحِـثٍ عَـن حَتفِـهِ بِيَدَيـهِ

نلاحظ أنه يتحدث عن محبوبه هنا بمنطق من يتحدث عن محبوبته، كيف أنه يظهر الخضوع من جانبه فيلقى في مقابل ذلك الاستهانة بأمره، وكيف أنه إذا أخطأ بادر بالاعتذار، ويحدث الخطأ من الطرف الآخر فلا يحاول أدنى محاولة للاعتذار، شأن من لا يبالي، ثم هو يصفح عن كل ما يصدر عنه من إساءة، دون أن يعامله الطرف الآخر بالمثل.

وهكذا يتحرك معظم شعر الغزل بالمذكر في إطار الغزل بالمرأة، سواء من حيث الأوصاف الحسية والعلاقات المعنوية. أما التعهر في هذا الغزل فلم يكن أكثر من التعهر في الغزل بالمرأة.

ولهذا كله نقول: إن الغزل بالمذكر وإن كان أفقًا جديدًا في عالم الشعر العباسي، فإنه على مستوى التجربة الإنسانية، ومستوى التعبير الفني جميعًا

لم يحدث إضافات حقيقية لها وزنها وخطرها في شعر ذلك العصر» .[١]

ونشير هنا أيضًا إلى شيء ثالث مهم، وهو أن الغزل بالمذكر يتضمن كذلك الاتجاهات الغزلية التي وجدت في الغزل بالمرأة، وهي: الغزل الحسي المادي، والغزل العفيف، والغزل القصصي. وهذا دليل آخر على أن الغزل بالمذكر لا يختلف كثيرًا عن الغزل بالمرأة، إلا في صيغة الخطاب أحيانًا، كما قلنا سابقًا.

وأؤكد هنا على أن نماذج الاتجاهات الغزلية الثلاثة: المادي، والمعنوي، والقصصي، كثيرة في الغزل بالمذكر في أشعار العباسيين، لكني اكتفيت بما عرضت من شواهد هنا، للدلالة على ذلك اللون من الغزل، والتأكيد على وجوده فعلًا في غزل شعراء العصر العباسي ، ولأنها تشير أيضًا إلى الاتجاهات الثلاثة بوضوح، فليس هناك مبرر لكثرة الاستشهاد هنا على شيء واضح وملموس.

وأشير هنا أيضًا إلى شيء رابع على قدر كبير من الأهمية، يدور حول لون آخر من الغزل بالمذكر غير ما سبق، فإذا كان ما سبق عرضه يتعلق بتغزل الشعراء في الغلمان، وعشقهم، وتصوير صفات الجمال والحسن فيهم، والحديث أحيانًا عن بعض مغامراتهم معهم، وما قد يكون فيها من فحش وتهتك، فهناك لون آخر من الغزل بالمذكر تتغزل فيه النساء بالرجال، أو الشاعرات بمن يعجبهن من الرجال أو الغلمان.

«فإذا كان الغزل بالمذكر عند الشعراء شاذًا؛ لمخالفته روح الدين

(١) في الشعر العباسي الرؤية والفن د. عز الدين إسماعيل، دار المعارف– ١٩٨٠م، ص ٣٩٧ – ٣٩٩ . وانظر: ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول د. حبيب أبو جمعة: ص ٢٠٧ – ٢٠٩ بتصرف .

وقيمه وأحكامه، وسمات الطبيعة الإنسانية السوية، وخروجه على الأخلاق، فهناك لون من الغزل قريب الصلة به وهو تغزل المرأة بالرجل ، أو الشاعرات بالمذكر، وقد شاع هذا اللون في العصر العباسي شيوعًا كبيرًا، حتى ليبدو – برغم أنه يضرب بجذوره في الشعر القديم – جديدًا مبتكرًا ؛ نظرًا لكثرته. وهذا شيء طبيعي في هذا العصر المتحضر، الذي كانت بعض مظاهر حضارته أحيانًا وبالًا على أهله – برغم ما لها من أفضال وإيجابيات – حين خرجت بهم بعض المظاهر الحضارية السلبية أحيانًا على كل القيم والأخلاقيات، وأتاحت للمرأة التغزل بالرجل دون حياء، وربما كان ذلك؛ لأن أغلب شاعرات هذا اللون من الجواري، على حين كانت شاعراته في الماضي عربيات حرائر، يتصفن بالعفة، ويتسمن بالحياء، ولهذا كان قليلًا نادرًا.

وهذه علية بنت المهدي، الشاعرة العباسية، تعلق بخادم يسمى (طل)، وتعشقه، وتتغزل فيه، مستخدمة الرمز أحيانًا حين غضب أخوها الرشيد لذلك. ومن تغزلها فيه قولها:

قَـد كـانَ مـا كُلِّفتُـهُ زَمَنـاً ... يـا طَـلُّ مِـن وَجـدٍ بِكُـم يَكفـي
حَتّـى أَتَيتُـكَ زائِـراً عَجِـلاً ... أَمشـي عَلـى حَتـفٍ إِلـى حَتـفِ

فمن شدة تعلقها به ذهبت إليه تجالسه وتحادثه.

وعندما غضب الرشيد لجأت إلى تصحيف اسمه فقالت :

سَـلِّم عَلـى ذِاك الغَـزالِ ... الأَغيَـدِ الحسـن الـدَلالِ
سَـلِّم عَلَيـهِ وَقُـل لَـهُ ... يـا غُـلُّ أَلبـابِ الرِجـالِ
خَلَّيـتَ جِسـمي ضـاحِيًا ... وَسَـكَنتَ فـي ظِـلِّ الحِجـالِ
وَبَلَغـتَ مِنّـي غايَـةً ... لَـم أَدرِ فيهـا مـا اِحتِيـالي

فمن بعيد ترسل لحبيبها (ظل) المصحف عن (طل) بالسلام، ذلك الغزال الأغيد الجميل، الذي ملك فؤادها واستولى على لبها، وتمكن منها تمكنًا شديدًا حتى أصبحت لا تستطيع الفكاك منه؛ لأنها تحبه وتعشقه.

وهناك الشاعرة العباسية الكبيرة فضل، وهي (جارية مولدة من مولدات البصرة ... وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام، أديبة فصيحة سريعة البديهة، مطبوعة في قول الشعر، ولم يكن في نساء زمانها أشعر منها .. وكانت لرجل من النخاسين بالكرخ يقال له: حسنويه، فاشتراها محمد بن الفرج أخو عمر بن الفرج الرخجي، وأهداها إلى المتوكل، فكانت تجلس للرجال، ويأتيها الشعراء).

وفي (الأغاني) أن محمد بن العباس اليزيدي قال: كتب بعض أهلنا إلى فضل الشاعرة:

أصبحتُ فردًا هائمَ العَقْلِ ... إلىْ غزالٍ حسن الشكل

أضنى فُؤادِي طولَ عَهْدِي بِه ... وبُعْده مِني وَمِنْ وَصْلِي

منية نفسي فِي هَوَى فَضْل ... أن يجمعَ اللهُ بها شَمْلِي

أهواكِ يا فضلُ هَوى خَالِصًا ... فما لِقلبي عَنْك مِنْ شغل

فأجابته :

الصبرُ ينقصُ والسقامُ يَزِيدُ ... والدَّارُ دانية وأنْتَ بَعِيدُ

أشكُوْك أم أشكو إلَيك فإنه ... لا يستطيعُ سواهما المَجْهُودُ

إنِّي أعوذُ بِحُرْمَتي بك في الهوى ... من أَنْ يُطاعَ لدَيْكَ في حسود

وكتب إليها بعض من كان يجمعه وإياها مجلس الخليفة، ولا تطلعه على حبها له:

ألا ليتَ شِعْرِي فيْكِ هَلْ تَذْكُريننِي فـذِكْرَاك فـي الـدُّنْيا إلـيَّ حبيـبُ
وهَلْ لِيْ نصيبٌ في فؤادك ثابتٌ كمَا لَكِ عندي فِي الفُؤَادِ نَصِيْبُ
ولَسْتُ بمَوْصُولٍ فَأَحْيَا بِزورةٍ ولا النَّفْسُ عِنْدَ اليَأْسِ عنكِ تَطِيْبُ

فكتبت إليه :

نَعَمْ وإلهي إنني بك صبة فهل أنت يا من لا عدمت مثيبُ
لمن أنت منه في الفؤاد مصور وفي العين نصب العين حين تغيبُ
فَثِقْ بِوُدادٍ أنتَ مظهر مثله على أنَّ بي سقمًا وأنتَ طَبِيْبُ

وكان بين فضل وبين سعيد بن حميد محبة وتواصل، فكتبت إليه:

وعيشك لو صرَّحْتُ باسْمِكِ في الهوى لأقْصَرْتُ عن أشياء في الهزلِ والجدِّ
ولكِنَّنِي أُبْدِي لِهذا مَوَدَّتِي وذاك وذاك وأخلو فيك بالبث والوجد
مخافة أن يغري بنا قول كاشح عدوا فيَسْعَى بِالوِصَالِ إلى الصّد

وكتبت إليه تخبره بتمكن حبه من جسدها وروحها:

بَثَثْتُ هواكَ في بَدَنِي ورَوْحِي فألَّفَ فِيْهِما طَمَعًا بِيَاس

ونشير إلى أن تغزل الشاعرات بالمذكر كان من اللون المعنوي العفيف، الذي لا تعهر فيه ولا تهتك، فقد وقف عند بث لواعج الشوق، والشكوى من ألم الهجر والفراق، وحرقة الصبابة، والتعبير عن المشاعر النبيلة، والعواطف الصادقة، دون أن يتردى إلى الغزل الحسي المادي، أو وصف مفاتن الجسد

في الرجل، أو الحديث عن مغامرات فاحشة، أو غير ذلك»[١]، مما يبعد بالغزل عن العفة.

وأشير هنا أيضًا إشارة موجزة سريعة، إلى أنَّ نماذج الغزل بالمذكر، التي تم عرضها هنا، تتسم أيضًا بالوضوح والقرب من الأفهام، حيث تتردد فيها المفردات والتراكيب والصور ووسائل الموسيقى الداخلية والخارجية، التي تتردد في اتجاهات الغزل الأخرى، وكلها من المألوفات في فن الغزل، ومن الوسائل الفنية الشائعة فيه، وأضحت إيحاءتها ودلالاتها واضحة للمتلقين تمام الوضوح، والعودة إلى النماذج التي تم عرضها في سياق ذلك اللون الغزلي بالقراءة مرة أخرى ،نجدها فإنها تدعم ذلك، وتؤكده.

وفي ختام الحديث عن الغزل بالمذكر يراودني تساؤل مهم، مؤداه: هل ذلك الغزل، وما تضمنه من تهتك ومجون وإشارة إلى مغامرات واقعية أحيانًا مع الغلمان، ناتج عن تجارب حقيقية واقعية في المجتمع العباسي؟ وهل ما صوره بعض الشعراء في غزلهم بالمذكر من مغامرات قاموا بها مع بعض الغلمان كانت حقيقية فعلًا ؟

وبداية أقول: لو تخيلنا أن ذلك كان حقيقيًا واقعيًا، فإنه يمثل لنا صدمة لا يمكن تجاوز آثارها النفسية، حيث تقدم لنا إشارة إلى أن المجتمع العباسي كان في بعض جوانبه مجتمعًا انحلاليًا ، متحللًا من كل القيم الدينية ،

(١) ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول، د. حبيب أبو جمعة: ص ٢١١- ٢١٤ بتصرف. وانظر: تجريد الأغاني – القسم الأول- ج٣، ابن واصل الحموي- تحقيق: د. طه حسين. وإبراهيم الإبياري- مطبعة مصر، ص ١١٧٢ ، ١١٧٣. وانظر: الأغاني، ج١٩، ط الهيئة العامة للكتاب، ص ٣٠١ - ٣٠٣ ، ٣٠٤- ٣٠٦ ، ٣١١

والسلوكيات الحميدة، بل وجرد نفسه في تلك الجوانب من كونه كان مجتمعًا إسلاميًا، وأوقع في تلك الجوانب نفسه في حمأة الفحش والرذيلة، التي تبعده كل البعد عن القيم والمبادئ الدينية الصحيحة والقويمة، وعن الجانب الإنساني السوي، والطبيعة البشرية المستقيمة والسوية.

وهذا يجعلنا نتوقف طويلًا أمام العصر العباسي، وما ساد في بعض جوانب المجتمع فيه وبين بعض أفراده من لهو ومجون، وفحش وتهتك، ونتساءل كيف صدر كل ذلك عن تلك الجوانب، وعن هؤلاء الأفراد، في مجتمع مسلم؟!

لكني لا أميل إلى ذلك مطلقًا، ولا أرى أن ذلك الغزل الفاحش بالغلمان أو بالمذكر، كان يعكس تجارب حقيقية، أو يصور مغامرات واقعية، كما يوحي به ظاهر بعض نماذج ذلك اللون من الغزل، وإنما كان على سبيل التندر والتفكه، والتقليد، والعبث البريء، والتصنع البديعي والتصويري.

ولذلك أراني أميل بشدة إلى رأي الدكتور شوقي ضيف في الغزل بالمذكر، الذي عبر عنه بقوله: «وأكبر الظن أن كثيرًا من هذا الغزل لم يكن يصور حقائق واقعة، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة في مجالس هؤلاء المجان الخليعين، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة، وعادة يصحبه الشاعر في إنشاده بحركات؛ ليزيد من ضحك السامعين. ونظن ظنًا أنه فات مؤرخي الأدب العباسي أن يلاحظوا هذه الظاهرة، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجري على بعض الألسنة في عصرنا من نكت جنسية» .[1]

(١) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف : ص٢٢٢.

كما أراني أميل بشدة أيضًا إلى رأي الدكتور عمر موسى باشا، الذي عبر عنه بقوله: «تلك هي صورة من الغزل بالمذكر في هذا العصر[١]، لكنها لا تعبر عن الواقع، إذ إن الغزل المذكور لم يكن في معظم الأحيان إلا تقليدًا للمحدثين السابقين من الشعراء[٢]، فغزل الشرف الأنصاري، شيخ الشيوخ المعروف بجلالة قدره ورفعة منزلته، هو من باب العبث البريء، وهو ضرب من التصنع البديعي؛ لإظهار الحذق، ذلك أن طبيعة الشعر العربي، ونظرية التقليد في الأخذ استدعت وجود مثل هذه الظاهرة واستمرارها في هذا العصر.

وصحيح أنه وجد شعراء ماجنون كابن منير الطرابلسي، وعرقلة الدمشقي، وابن دفتر خوان وغيرهم، خرجوا عن الجادة المستقيمة في حياتهم، بيد أن معظمهم كانوا – كما يقول ابن رشيق – يسلكون هذا السبيل جرياً على سنة المحدثين والمولدين من الشعراء تقليدًا لا اعتقادًا» .[٣]

تلك هي الوجهة الأقرب إلى الصواب والواقع في الموقف من غزل بعض العباسيين بالمذكر، أو بالغلمان، وما حواه في بعض نماذجه من تهتك وفحش، وتصوير لمغامرات، وغير ذلك.

هكذا كان الغزل بالمذكر يمثل اتجاهًا غزليًا جديدًا في أشعار بعض الشعراء العباسيين، نشأ عن بعض مظاهر التقدم الحضاري، وبعض مظاهر الوضع الاجتماعي، بما ظهر في بعض جوانبهما ومظاهرهما من بعض

---

(١) يريد الحقبة التي تحدث عنها من العصر العباسي في كتابه (الأدب في بلاد الشام)، وهي تبلغ قرنين من الزمان تقريبًا في أخريات العصر.

(٢) يقصد بالمحدثين السابقين هنا شعراء بدايات العصر العباسي في قرونه الأولى .

(٣) الأدب في بلاد الشام د. عمر موسى باشا: ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

مظاهر وعادات سلبية،و من لهو ومجون، ومجالس الشراب والغناء، وكثرة الغلمان والجواري، واختلاط العرب بهم، وما ساد ذلك الاختلاط أحيانًا من بعض مظاهر الخلاعة والعبث.

كما كان من الغزل بالمذكر ما هو حسي مادي، وما هو معنوي، وما هو قصصي ، وإن كان في تلك المجالات لا يخرج عن إطار الغزل التقليدي في المعاني والأفكار والصور والصفات، التي عرفت في فن الغزل بشكل عام.[1]

١() ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول د. حبيب أبو جمعة: ص ٢١٤ بتصرف .

خـــــــــــاتمة

تلك كانت رحلة مع اتجاهات فن من فنون الشعر الرئيسة وهو فن الغزل، في عصر من عصور ازدهار شعرنا العربي القديم، وهو العصر العباسي، الذي يتلألأ بشعرائه وشعره، على اختلاف فنونه وموضوعاته واتجاهاته، في تاريخ شعرنا العربي الطويل.

وقد وقفتُ في تلك الرحلة على أهم اتجاهات الغزل في أشعار الشعراء العباسيين، فألقيتُ الضوء على تلك الاتجاهات، وعوامل ازدهارها في ذلك العصر، وسماتها، كما بينتُ أسباب وجود تلك الاتجاهات في غزل العباسيين، وكثرة بعضها وأسباب ذلك، وبيَّنتُ أيضًا الملامح الفارقة بينها، ودعمتُ ذلك كله بنماذج شعرية لشعراء العصر العباسي في إطار كل اتجاه.

وبعد تلك الرحلة مع اتجاهات الغزل في أشعار العباسيين، انتهيتُ إلى ما يلي:

– النماذج الشعرية التي ذكرت في سياق البحث هي مجرد أمثلة، للاستشهاد بها على الملامح والسمات العامة في كل اتجاه غزلي، وليست حصرًا لما يندرج في كل اتجاه منها من شواهد، وإنما اكتفيتُ بتلك الشواهد؛ لأنها تمثل الاتجاهات تمثيلًا دقيقًا، وتغني عن الشواهد الأخرى، التي ربما لا تضيف جديدًا إلى الحديث في إطار كل اتجاه من اتجاهات الغزل.

– غلبة الجانب التقليدي على اتجاهات الغزل في شعر العصر العباسي، كما وضح في الأنماط الأربعة الأولى التي عرضتُ لها، والتي تمثل تمسك الشعراء العباسيين بالموضوعات والاتجاهات الغزلية القديمة في غزلهم، بما تحويه من معانٍ وأفكار وصور وصفات وموسيقى تقليدية.

فبالتأمل في نماذج شعر الغزل، التي عرضنا لها في سياق البحث، وغيرها، نلاحظ أن الشعراء لم يخرجوا فيها – غالبًا – عن المألوف والمعتاد من المفردات والتراكيب والأساليب اللغوية، والمعاني والأفكار، والصور، والصفات، والأوزان والقوافي، المستخدمة في شعر الغزل منذ القدم، سواء في الغزل بالمرأة، والغزل بالمذكر، وربما يكون السبب في ذلك وحدة الموضوع، وما يدور حوله من المضامين، وغيرها من السمات الأخرى، وربما تقارب المشاعر والأحاسيس لدى الشعراء تجاه المرأة، وتجاه الغلمان كذلك، سواء في حال الحب والتعلق بهما، أو في حال النفور منهما، أو في حال الهجر والفراق والبعد عنهما، أو في حال التعلق بمفاتن الجسد، وإغراءات الجمال الحسي، والنزوع إلى بعض المغامرات، والحديث عنها.

وهذا كله يقتضي التقارب غالبًا، والتشابه أحيانًا، في المفردات والتراكيب اللغوية، وفي المعاني والأفكار، وفي الصور الفنية، وفي الصفات التي يخلعها الشعراء على النساء والغلمان، وفي غير ذلك مما يتضمنه شعر الغزل في كل العصور الأدبية.

– وجود بعض مظاهر التطور في شعر الغزل في العصر العباسي، ومنها: تغير نوعية المرأة المتغزل فيها، حيث تحولت في الغالب إلى جوار كثيرة، تختلط بالرجال، وتشاركهم في مجالس الشراب والغناء، وفي اللهو والمجون والعبث والخلاعة، فأصبح أغلب شعر الغزل يدور حول تلك الجواري، بل وشاركت بعضهن في بعض المطارحات الشعرية مع الشعراء.

ومنها: غزل الرسائل الغرامية التي كثرت في ذلك العصر، وما تبعها من استخدام بعض الفواكه في تلك الرسائل، لتحمل الرسائل الغرامية شعرًا بين الشعراء ومحبوباتهم.

– تضمن شعر الغزل في العصر العباسي مظهرًا جديدًا، أو قل: اتجاهًا

جديدًا، هو الغزل بالمذكر أو الغزل بالغلمان، حيث توافرت له من الدواعي والأسباب ما ساعد على ظهوره ، وامتداده على مدى تاريخ العصر العباسي كله. وهو مظهر يمثل – في حقيقته – خروجًا على القيم والمبادئ والأحكام الدينية السامية، والروح الإنسانية، والطبيعة البشرية السوية، وكم كنا نود ألا نجده في شعرنا العربي.

– ما ظهر من تطور وتجديد في شعر الغزل العباسي لا يتناسب مع ما شهدته الحياة العباسية من تطور وتجديد في مختلف جوانب الحياة، ذلك التطور والتجديد اللذان كان من المفترض أن يهذبا ذوق الشعراء، ويرققا أحاسيسهم في مجال شعر الغزل، ولكن ذلك لم يكن إلا في حدود ضيقة، حتى ما قدمه شعراء العصر العباسي من جديد في شعر الغزل كان في معظمه مرفوضًا، لاسيما الغزل بالمذكر، وبعض الصور الغزلية الجديدة، التي قامت على التهتك والفحش والخلاعة.

– شهد نتاج الشعراء في فن الغزل ما شهدته الحركة الشعرية بشكلٍ عام في العصر العباسي، من حيث شكل القصيدة، وموسيقاها، فوجدنا فيه القصائد الطوال التقليدية، والقصائد القصيرة، والمقطعات، كما وجدنا فيه الأوزان الطويلة، والأوزان القصيرة، والمجزوءة.

– يلاحظ من خلال البحث في اتجاهات شعر الغزل في أشعار العباسيين غلبة الغزل المادي الحسي الصريح على غزلهم، كأثر من آثار بعض المظاهر السلبية في الوضع الاجتماعي، و في الجانب الاقتصادي في العصر العباسي، وما نتج عنها من لهو ومجون وعبث، ومجالس شراب وغناء، وما فيها من خلاعة ومداعبات، وكثرة الجواري ، وكثرة الغلمان اللاهين، وانتشار مظاهر البذخ والثراء والغنى، التي ساعدت على شيوع اللهو في بعض جوانب من المجتمع العباسي، وقد تأثر بعض الشعراء بكل

ذلك في غزلهم، فغلب عليه الغزل المادي الحسي الصريح، بل وكثر أيضًا الغزل القصصي ، بحكم تأثير تلك العوامل كلها.

لكنَّا نؤكد أيضًا هنا أن الجانب الملتزم أخلاقيًا واجتماعيًا قد ظهر أثره أيضًا واضحاً في فن الغزل، وذلك في الغزل العذري العفيف، الذي يتجنب فيه الشعراء حديث المفاتن الجسدية، والمغامرات القصصية، وغير ذلك من كل ما يخرج عن نطاق هذا اللون من الغزل

– أثرت بعض المظاهر الحضارية والاجتماعية، و بعض الألوان الثقافية المختلفة، في اللغة الشعرية لفن الغزل، حيث تفاعل بعض الشعراء مع تلك المتاحات في نماذج من غزلهم، فجاءت لغتها رقيقة سهلة واضحة، قريبة من الأفهام والأذهان، وندر فيها الغريب والعويص، وتخلص الشعراء فيها من كثير من سمات اللغة الشعرية عند القدماء.

– كل ما سبق، في ثنايا البحث ، وفي خاتمته، يشير إلى أنَّ فن الغزل في شعر العصر العباسي يعد– في بعض نماذجه– انعكاسًا صادقًا، ومرآة حقيقية لبعض جوانب الحياة، وبعض مظاهر الواقع في ذلك العصر، في اتجاهاته الموضوعية، وفي لغته وأساليبه، وفي معانيه وأفكاره، وفي صوره، وفي موسيقاه الشعرية، حيث ينطلق الشعراء، في ذلك كله، من بعض مظاهر الواقع، وبعض مظاهر الحياة، وما ماجت به تلك المظاهر من تطور وتجديد، ومن تغيير في السلوك، وفي بعض أنماط الحياة، وفي الاختلاط والامتزاج بين الأمم والشعوب المختلفة، وبين الرجال والنساء، وفي تغير طبيعة المرأة– في الغالب– في ذلك العصر، على الرغم من غلبة النزعة التقليدية عليه بشكل عام، إلا أن الإنصاف والموضوعية يدفعان إلى تقرير ذلك الذي نميل إليه.

– أؤكد هنا على أن فن الغزل في شعر العصر العباسي، إذا كان قد

كشف عن بعض الجوانب والمظاهر السلبية في ذلك العصر، وفي بعض جوانب الحياة الاجتماعية والحضارية فيه بشكل خاص -كما اتضح ذلك في الغزل بالمذكر، وفي بعض نماذج من الغزل الحسي، والغزل القصصي، وأنه قد عكس بعض مظاهر الانحراف والفساد والانحلال في بعض جوانب المجتمع العباسي، وعند بعض أفراد، وبعض شعراء ذلك المجتمع.

أقول: إذا كان ذلك كذلك، فلا يعني أبدًا أن العصر العباسي كان كله عصر انحلال وفساد، كما لا يعني أن المجتمع العباسي كان كله مجتمع لهو ومجون وانحراف، إنما كان ذلك في جوانب محددة من المجتمع، ولدى بعض أفراد منه، حيث كان العصر العباسي- في الغالب- عصر تدين وتصوف، والتزام ديني وأخلاقي، وعصر تقدم وتطور علمي وثقافي، في شتى العلوم والمعارف والمجالات الثقافية، كما كان عصر ترجمة للثقافات والعلوم الأجنبية المختلفة، والإفادة من محاسنها، وإيجابياتها.

وربما يعكس الغزل العذري العفيف بعضًا من جوانب مظاهر الالتزام الأخلاقي والاجتماعي في العصر العباسي.

كل ما أرجوه- بعد ذلك- أن يكون البحث قد كشف بوضوح عن ذلك كله، وأكده بما لا يدع مجالًا للشك، أو عدم الاقتناع، وأن يكون البحث قد قدم صورة دقيقة لفن الغزل في شعر العصر العباسي، نظريًا وتطبيقيًا.

والله الموفق

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – د. محمد مصطفى هدارة – دار المعرفة الجامعية – الطبعة الثالثة – ١٩٨١ م .
- الأدب العربي بين البادية والحضر – د. إبراهيم عوضين – مطبعة السعادة – القاهرة – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .
- الأدب في بلاد الشام – د. عمر موسى باشا – المكتبة العباسية – دمشق – الطبعة الثانية – ١٣٩١ هـ –١٩٧٢ م .
- أعلام في العصر العباسي – د. حسين الحاج حسن – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
- الأغاني – للأصفهاني – عدة أجزاء – عدة طبعات – مبينة في موضعها من البحث .
- تجريد الأغاني – القسم الأول – جـ ٣ – ابن واصل الحموي – تحقيق : د. طه حسين وإبراهيم الإبياري – مطبعة مصر .
- ديوان ابن الرومي جـ ٢ – تحقيق : د. حسين نصار – ط دار الكتب – ١٩٧٤م .
- ديوان ابن المعتز جـ١ – تحقيق : د. محمد بديع شريف – دار المعارف .
- ديوان ابن منير الطرابلسي، جمع وتقديم د. عمر عبد السلام تدمري،ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٦
- ديوان أبي نواس – تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان–
طبعة دار صادر – بيروت – لبنان .
- ديوان البحتري – تحقيق : حسن كامل الصيرفي – دار المعارف .
** جـ١ – الطبعة الثالثة .

** جـ٢ – الطبعة الثانية ١٩٧٣ م .
** جـ٣ – الطبعة الثالثة .
- ديوان بشار – تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – جـ ١ ١٩٥٠ م – جـ ٢ ١٩٥٤ م – جـ ٣ ١٩٥٧ م .
- ديوان البهاء زهير – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد طاهر الجبلاوي – دار المعارف – الطبعة الثانية .
- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي – مطبعة دار الكتب المصرية – الطبعة الأولى – ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م .
- ديوان العباس بن الأحنف – دار صادر – بيروت – لبنان – ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .
- ديوان علي بن الجهم – خليل مردم – ط المجمع العلمي العربي بدمشق .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة – مطبعة السعادة – القاهرة .
- شعر ربيعة الرقي – د. يوسف حسين بكار – دار الرشيد للنشر – العراق – ١٩٨٠ م .
- ديوان المتنبي، ج٢، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
- ديوان الوأواء الدمشقي، جمع وتصحيح: أغناطيوس كراتشقوفسكي، مطبعة ليدن، ١٩١٣م
- شعر مروان بن أبي حفصة – د. حسين عطوان – دار المعارف – الطبعة الثالثة .
- الصراع بين الموالي والعرب – د. محمد بديع شريف – دار الكتاب العربي – القاهرة – ١٩٥٤م.

- طبقات الشعراء المحدثين – ابن المعتز – تحقيق : عبد الستار أحمد فراج – دار المعارف – الطبعة الرابعة .
- ظاهرة التجديد في شعر العصر العباسي الأول – د. حبيب أبو جمعة – مكتب الإيمان للطباعة والنشر – المنصورة – الطبعة الأولى – ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .
- العصر العباسي الأول – د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة السابعة .
- العصر العباسي الثاني – د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة التاسعة .
- في الشعر العباسي . الرؤية والفن – د. عز الدين إسماعيل – دار المعارف – ١٩٨٠م.
- نفسية أبي نواس – محمد النويهي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٥٣ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤٥١
توطئة :إطلالة موجزة على فن الغزل من الجاهلية حتى العصر العباسي	٤٥٧
طبيعة المرأة في العصر العباسي وتطور فن الغزل:	٤٦٢
أولاً: الغزل المادي الحسي:	٤٦٩
ثانيًا: الغزل العفيف:	٤٧٨
ثالثًا: الغزل القصصي :	٤٨٨
رابعًا: غزل المقدمات الشعرية:	٤٩٨
خامسًا: غزل الرسائل الغرامية:	٥٠٧
سادسًا: الغزل بالمذكر:	٥١٥
خـــــــــاتمة	٥٣٤
المصادر والمراجع	٥٣٩
فهرس الموضوعات	٥٤٢